كتاب الهلال

لبنى عبد المجيد



اعترافات أدبية



لبنى عبد المجيد

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

الخطوط للفنان :

محمد العيسوى

قبل أن تقرأ..

حكايات البشر لها سحر خاص .. فلكل منا قصة حياة لها مذاق و لون فريد يميزها و إن تشابهت تجربتنا الإنسانية . و لأن الكتابة هى فعل التواصل الإنسانى الحميم الذى حفظ للإنسانية ذاكرتها و تاريخها ' اهتم البشر بتسجيل قصصهم منذ عصر النقش على الحجر إلى عصر الطباعة على الورق . ربما هى الرغبة فى الخلود أو هى الحاجة إلى الإفضاء والمشاركة التى تدفع بالفرد إلى كتابة قصته ' و ربما هى الرغبة فى كشف الأسرار و معرفة خبايا النفوس و الاطلاع على تجارب الآخر أو الرغبة فى معايشة حياة جديدة مختلفة وراء شغف الناس بأدب السيرة الذاتية أو أدب الاعتراف .
وقد كنت واحدة من هؤلاء الناس الذين تملكهم الشغف بأدب الاعتراف ' تأثرت كثيرا بما قرأت من هذه الكتابات' عشت مع أصحابها فى مختلف مراحلهم العمرية ' و ارتحلت معهم إلى أماكن و أزمان مختلفة ' و راودنى حلم لقائهم وجها لوجه ' و تحقق الحلم من خلال برنامج (إعترافات أدبية) الذى

قدمته عبر موجات إذاعة صوت العرب لأزداد اقتراباً من عالمهم و ليشاركني المستمعون عشقي .

ولعل أكثر ما جذب انتباهي فيما قرأت و قدمت من أدب السير الذاتية أن خيطاً واحداً قد جمع بين غالبية من تطرقوا لكتابة سيرهم ' و هو الحياة ' و لا أقصد بالحياة هنا ذلك النظام اليومي الرتيب ' أو ما نعرفه عن أنفسنا من حيث النشأة و الأقارب و العمل 'فكل ذلك لا يجعل من السيرة الذاتية عملاً شائقاً و مفيدا ' بل أقصد بها الحياة التي رأها كل منهم ' كيف عاشها ' كيف أدركها ' تأملاته ' مخاوفه ' تغيراته ' لحظات قوته و لحظات ضعفه ' أحلامه .. ما تحقق منها و ما لم يتحقق ' وما وصل إليه من أفكار و رؤى ' مما يجعل رؤيتنا لذاتنا تتضح أكثر ' فقد تجعلنا قراءة سيرة ذاتية لأديب أو عالم أو فنان نحب الحياة بشكل أفضل فنسعى لجعلها أجمل ' قد تجعلنا نزداد فهماً لتصاريف الأقدار والزمن ' قد تجعلنا نتصالح مع أنفسنا ' و قد تضيف إلى خبراتنا بعداً جديداً ' فكل منها يحمل عبرة ما ' أو فكرة ما عن الحياة . مما جعلني أنظر لأدب الاعتراف كونه رؤية للحياة ' مبتعدة ببرنامجي عن كافة التعريفات الملزمة بوضع

أدب السيـر الذاتيـة فى شكل محـدد ' فكنت أبحث عن تلك الرؤية سواء كتبت فى شكل مقال ذاتى ' أو فى شكل يوميات ' أو أى شكل أخر مبتكر .

وبلقائى بهم ازددت عشقاً و تقديراً لحكاياتهم المختلفة ' وفكرت فى أن يشاركنى عشقى المزيد من الناس ' فوجدت أن فعل الكتابة ـــ يعود هنا إلى أصحاب السير ـــ و فعل القراءة ـــ يعود هنا إلىّ ـــ هو الذى قربنى منهم فى الأساس ' فكتبت قصتى مع عدد منهم ' قصتى معهم عبر الميكروفون ' ليقترب الناس عبر القراءة من عالمهم و ربما من عالمى أيضاً . فى الصفحات التالية سيجد القارىء أربعة عشر لقاءاً إذاعياً مع مفكرين و شعراء و رسامين و أدباء كبار ' مصريين وعرب ' رحل بعضهم عن عالمنا' اجتهدت فى تقديمهم من خلال سيرهم الذاتية عبر الأثير ' و اجتهدت فى تقديمهم عبر الكتابة أيضاً ' لعل القارىء يجد فيها ما يفيده ويمتعه .

إهــــداء

رَجُلان من الشرق :

والدى الإعلامى الكبير/عبد المجيد شكرى

فارس من فرسان الزمن الجميل ..

علمنى أن الكلمة مسئولية .. أن الحُلمَ مسئولية ..

و أن مصرَ أجمل مكان فى الوجود ..

زوجى الإعلامى/ محمد مقبل

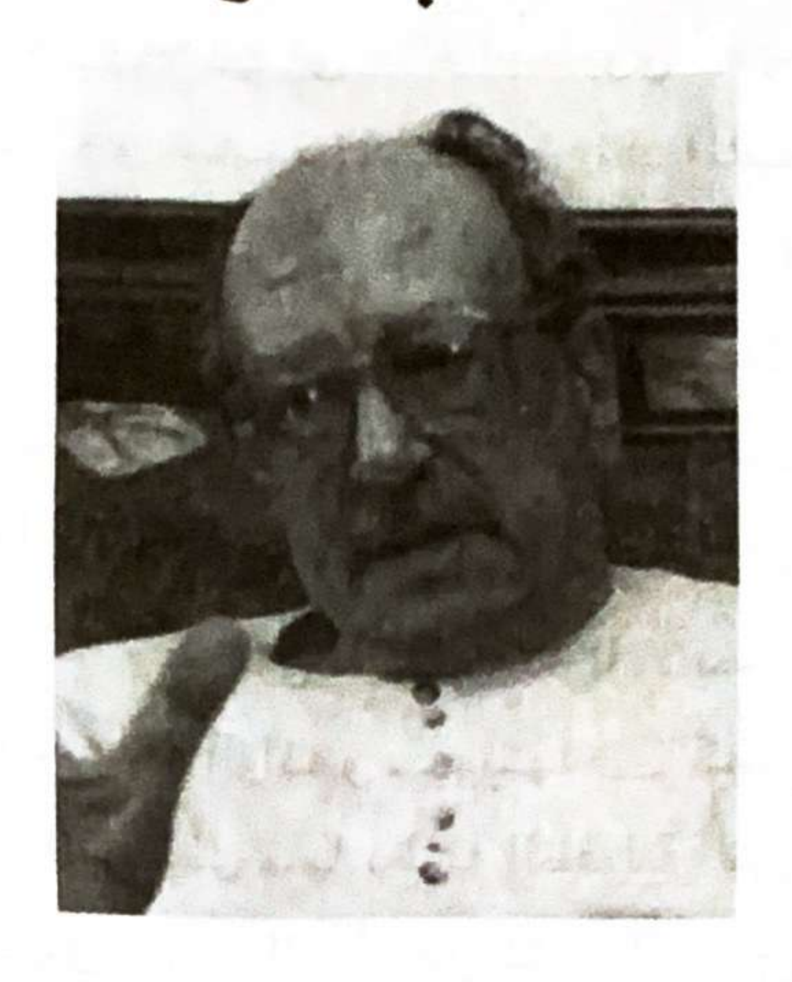
رجل لا يؤرقه نجاحُ امرأة ..

هو دوماً الصديق الذى يمد لى يداً ملؤها ..

الشجاعة .. و الفهم .. و الحب ..

بهجت عثمان

صداقة بلا حدود



دفقات من الدفء و الطمأنينة هى أول ما شعرت به و أنا فى صومعة رسام الكاريكاتير و الأطفال بهجت عثمان فكأن كل قطعة من أثاث بيته البسيط ترحب بى . حفاوة مفعمة بالدفء تسللت إلى أوصالى و أنا أطالع وجوه العرائس المتناثرة فى أرجاء المنزل بنظراتها الثابتة و ابتساماتها البريئة أعادتنى إلى زمن الطفولة التى عشتها مع أبطال رسوماته مبحرة معهم فى عالم أسطورى ' فهذا (متولى) بسمار بشرته و شعره المجعد ' و تلك المليحة تذكرنى (بشهرزاد) و مغامراتها المرحة ' و غيرها من العرائس التى صنعتها يد زوجته مصممة العرائس السيدة بدر حماده فأعادت إلىّ ملمحاً من الذكريات العذبة التى عشتها وعاشها جيلى فى رحاب قصص و رسوم العم بهجت أو بهاجيجو .

كانت ملامحه رغم مرور السنين لاتزال تنبض بالحياة ـــ مما ذكرنى بإشراقة ألوانه و حيويتها ـــ كما كانت تحمل تلك البشاشة التى تطل منها نظرته الطفولية التى تشعر معها أن الغد أفضل لا محالة 'و هو الشعار الذى ظل بهجت عثمان يرفعه حتى اللحظات الأخيرة لرحيله . و جال بخاطرى آنذاك أنك قد تلتقى بأناس أكثر من مرة لكنهم يمرون فى

حياتك دونما تأثير ' و قد تلتقى بإنسان مرة واحدة لكنه يبقى حياً فى ذاكرتك إلى الأبد و هذا هو(بهجت عثمان) الذى علمنى و علم كل من عرفه حب الحياة ' و سيظل كتابه (صداقة بلا حدود) دليلاً على ذلك الحب . و(صداقة بلا حدود) هى مجموعة تجارب ذاتية مقدمة للأطفال بشكل بسيط و يمكن للكبار أيضاً الاستمتاع بها و ذلك بمصاحبة رسوم رشيقة واضحة' أهم ما يميزها أنها إنسانية النزعة' شرقية الطابع ' عربية الفكر ' يقدم لنا فيها الفنان حياته كما رأها متمثلة فى مجموعة من الصداقات التى تنوعت ما بين الموسيقى و الكتب و الناس و المعانى الجميلة فى الحياة ' حتى الجماد نشأت بينه و بين بهجت عثمان صداقة ' و حول (صداقة بلا حدود) جلسنا نتجاذب أطراف الحديث الذى بدأناه من العنوان و دلالته:

للحقيقة كنت أريد أن أتواصل مع الأطفال ففكرت أن أعمل ما يشبه السيرة الذاتية الخاصة بى لأنى أعتقد أن الأطفال بحاجة أكثر لتجارب الكبار .. و ليست هذه التجارب بمعنى أين نشأت و ترعرت و ماذا تعلمت و هكذا .. و إنما كتبتها بصيغة أخرى و هى .. ماذا أحببت فى حياتى ..

أحببت شجرة .. مدينة .. مبدأ .. و بذلك أُشعر الطفل بعلاقتي بالكون كله .. و قصدت في هذه التجربة أن أكتبها بخط يدي و ليس بشكل حروف المطبعة كي يكون خطاباً شخصياً لمن أحاول أن أخاطبه .. فعندما يصلك خطاب مكتوب على الآلة ليس كما يصلك خطاب شخصي مكتوب بخط اليد فتشعر أنه من صديق حميم .. و أيضاً قمت بتغيير اسمي أو بمعنى آخر " دلعت " اسمي كي أزيل الكلفة بيني و بين الطفل فوقعت باسم " بهاجيجو " .. و هو اسم لم اخترعه بنفسي .. فلدى ولدان و لم يقولا لي يا بابا .. كانا دائماً يقولان لي يا "بهاجيجو" و أزعم أن الاحترام كان موجوداً لكنه كان ممزوجاً بالحب و لم يكن احترام خشية أو خوف .. فبهاجيجو بها حميمية أكثر .. و هذا في رأيي الأسلوب و التواصل الحقيقي مع الجيل القادم الذي سيحمل لواء الوطن و من المهم جداً أن نقف وراءه بكل إمكانياتنا .

من اللافت للنظر في (صداقة بلا حدود) أن هناك عنصراً رئيساً في هذه التجارب و هو حب الحياة و الأمل الدائم في غد أفضل ' حيث نجح بهجت عثمان في رؤية الأمل و الجمال في أبسط تفاصيل الحياة المحيطة بنا . و قد رأى

أن حب الحياة يبدأ من تحديد الإنسان لما يريده منها ' و كان ذلك رداً على سؤالى إياه عن وجهة نظره فى ما الذى يجعل الإنسان محباً للحياة ' و قد أضاف فى هذا السياق قائلاً :

بعض الناس تعيش حياتها و هى لا تشعر إذا ما كانت تحيا أم لا .. لا تشعر إذا ما كانت مستمتعة بحياتها أم لا .. يجب على الإنسان أن يحب ما يعمل أولاً .. و أن يشعر أن له هدفاً .. أنا رغبتى قد تكون طموحة جداً و هى تغيير الدنيا للأحسن .. فمن الممكن أن أتعثر و أفشل لكن يظل لى شرف المحاولة .. و ليس بالضرورة أن يكون الهدف الخاص بأى إنسان كبيرا .. بمعنى أن يكون مسئولاً كبيراً أو رئيساً أو عظيماً .. كل هذه الأمور نسبية .. أنا كنت دائماً أقول لأولادى إعمل " كناس " لأنك تحب عملك و لديك رغبة فى تنظيف الدنيا و الحفاظ على البيئة و تستمع بعملك عن أن تكون فى أكبر الوظائف و تصحو فى الصباح و أنت ذاهب لعملك و تقول " يا خبر لسه حاروح تانى " هذه ليست حياة .. أنا أرى أن " الكناس " و أنا آسف لاستخدام كلمة " كناس " أنا أحترم هذه المهنة جداً لكننى أقصد أن أبسط الوظائف حين يكون فيها هدف و رغبة داخلية تكون أمتع و أفضل من أعظم الوظائف حين لا نحبها .

ارتبط بهجت عثمان بصداقات عدة مع أساتذته ' و عن علاقته بأستاذه الفنان الكبير(حسين بيكار) كتب يقول :

"أبحرت فى عالم الفن الجميل تحملنى سفينة الأستاذ بيكار .. كان رباناً و صديقاً يوجهنا بنفس بساطة رسومه .. كان بحر الفن عميقاً واسعاً بلا حدود ' لكن الربان كان واثقاً مقتدراً فى وقت الشدة .. و عندما يصفو الجو كان يحمل عوده .. و يعزف لنا أشجى الألحان ' و نحن مبهورون نتحير أيهما أعذب .. موسيقى الألحان أم موسيقى الألوان . عندما رسمت ثلاثين كتاباً من وحى حكايات كليلة و دمنة .. حملت الكتب إليه كطفل صغير يحمل كراسة الواجب ' و عندما هنأنى قلت له " هذا فضلة خيرك " . كافأنى صديقى وأستاذى بابتسامة رائعة و عزف لى لحناً شجياً .. ما أحلى صداقة الأستاذ لتلاميذه . "

و فى ذات السياق حدثنى الفنان عن أساتذته و هو بعد صغير قائلاً :

المدرسة كان فيها معلمون تربويون .. فكرتهم ليست فى عمل رسام بل فى عمل إنسان يتذوق الفن و يستطيع أن يعبر عن نفسه بهذه اللغة و هم الأساتذة الذين قابلتهم فى حياتى

.. اتذكـر منهم (الأسـتـاذ شكرى) مـفـتش الرسم وكـان شـخـصـيـة مـتـفـردة .. على أيامنا كنا نرتدى الطربوش .. والطربوش كـان أحـمـر.. (الأسـتـاذ شكرى) كـان يرتدى طربوشاً أخضر و يقول " إحنا فى مصر و وطنا وطن أخضر ليه نلبس طربوش أحمر " كان يرى الأمور من منظور مختلف و كانت عنده رغبة فى تغيير الدنيا للأحسن .. و أنا اعتقد أن الأسـتـاذ شكرى هو أول واحد وضع أصـابعـه على عـملى و أعطانى الدفعة الكبيرة لأوسع مداركى فى الفن .. قابلت بعد ذلك مدرسين ليس لديهم الاهتمام الكافى " صوابعك مش زى بعضها "فكان هناك " الكويس " و هناك الذى يأخذها مجرد روتين حتى إن أحدهم كاد أن يجعلنى أفقد الرغبة فى أن أكون رساماً و لكن حدثت ظروف و جاء أستاذ آخر أعاد لى ثقتى بنفسى و اذكره بشدة و هو الأسـتـاذ(يوسف رأفت) الذى كان يدرس لى فى المرحلة الثانوية و أعطانى الدفعة كى أتجه لكلية الفنون الجميلة .. و الذى أكمل المشوار بشكل أكبر كان الفنان حسين بيكار فى كلية الفنون الجميلة .. اعتقد أن هؤلاء كان لهم الفضل فى اتجاهى للفن و أرجو أن أكون عند حسن ظنهم .

فى (صـداقـة بلا حـدود) كـتـب الفنان بهجت عـثـمـان

بصراحة عن مواقف يخجل منها ' و هو أمر نادر فقلما يتحدث البالغون عن أخطائهم أمام الصغار ' و هو عكس ما قدمه بهجت ' فقد كتب يحكى مثلاً عن حبه للشعر فى الصغر و محاولاته المتكررة لنظم الشعر دون جدوى حتى دفعه ذلك إلى سرقة إحدى قصائد أخيه الذى يكبره بثلاثة أعوام " ودفعنى اليأس إلى شئ غريب سرقت إحدى قصائد أخى وقرأتها فى الفصل على أنها من تأليفى ' و يسمع أستاذنا فى اللغة العربية فيأخذها منى بعد أن أثنى عليها ' و فجأة إذ بها منشورة فى مجلة المدرسة باسمى . و كانت فضيحة ! إذ رآها أخى لأنه فى نفس المدرسة و تجاهل الموضوع تماماً مما زاد فى تعاستى و شعورى بالعار . و أحسست كما لو كنت أسير عرياناً فى الطريق و لا أجد ما أستر نفسى به . من الجائز أن هذا الحادث المشين هو أحد الأسباب التى جعلتنى اتجه إلى عالم الرسم ' و أحاول أن أصبح رساماً لمجرد أن أستر هذا العار ! ربما .."

و بذلك نلمح نوعاً آخر من صداقات بهجت و هى الصراحة مع النفس التى تؤدى إلى تصالح معها ' و تتأكد معالم هذه الصداقة بشكل واضح فى موضع أخر فى

(صداقة بلا حدود) " نعم أنا أحب نفسى .. أحبها و لا أشعر أننى أنانى .. فأنا أحاسب نفسى لأننى أحبها و إلا .. لو كنت لا أحبها لما اهتممت بها .. و لما عاقبتها . فى كل مساء .. عندما ينتهى يومى و أذهب إلى سريرى .. و قبل أن أنام أبدأ فى استرجاع شريط اليوم كله .. ماذا فعلت فيه ؟ أعيد تقييم أعمالى طوال اليوم منذ أن صحوت .. حسناتى و سيئاتى .. خيرى و شرى .. أضعهما فى الميزان و يا سعدى و يا فرحتى عندما تثقل كفة الخير .. ساعتها أنام قرير العين .. و أظل أطير بغير جناح طول الليل .. نعم أحلم بأنى أطير فى سماء واسعة .. أصل فى غمضة عين إلى حيث أريد .. و يدى تطول ما أشتهى .. ياله من حلم رائع يحملنى إلى نهار باسم سعيد. و لكن ياويلى إذا ثقلت كفة أخطائى .. الحلم يصبح كابوساً .. سماء قاسية السواد ' و أنا أسقط منها .. و أظل أهوى و أهوى من فوق .. أتشبث بأفرع أشجار و صخور مدببة فتأخذنى و تسقط بى .. و أظل أهوى دون أصل إلى القاع .. و يستمر هذا الكابوس المخيف .. أمنيتى أن ترضى نفسى عن نفسى و أطير .. متى أظل طائراً دون أن أسقط ؟ متى ؟"

و يرى بهجت عثمان أن الصدق مع النفس هام جداً عند

تحديد الإنسان اختياراته فى الحياة ' و هذا ما فعله عند تخرجه فى كلية الفنون الجميلة ' و قد حكى لى عن ذلك رداً على سؤالى إياه عن الأسباب التى جعلته يتجه إلى فن الكاريكاتير بالرغم من تخرجه فى قسم النحت :

الغريب إنه بالرغم من كونى تخرجت فى كلية الفنون الجميلة من قسم النحت .. و كنت حسب الدرجات حاصلاً على امتياز كما كنت أول دفعتى .. كان من الممكن أن أكون نحاتاً " مش بطال " لكن فى الصدق مع النفس و هو أمر مهم جداً شعرت أن النحت يحتاج إلى نوع من الانفعال بطىء أو ممتد المفعول مثل الذى يكتب رواية غير الذى يكتب قصة قصيرة أو قصيدة شعر .. ثانياً كان فى ذهنى الرغبة العارمة فى تغيير الدنيا للأحسن و ثالثاً أنا بطبعى خجول و كى أعبر عن نفسى أمام الأشياء كنت محتاجاً أن أختفى وراء ورقة وقلم لذلك وجدت أن أكثر وسيلة معبرة و مناسبة بالنسبة لى هى فن الكاريكاتير .

و بالرغم من ذلك اتخذ الفنان بهجت عثمان قراراً بترك فن الكاريكاتير و عن ذلك حدثنى قائلاً:

الكاريكاتير من وجهة نظرى الشخصية هو رغبة فى تغيير

الدنيا للأحسن .. رغبة فى نقد السلبيات لكننى وجدت أنى أعيش فى عصر الممنوع مشروع .. كنت ترى واحداً يمد يده كى يسرق فتقول له يا حرامى "يروح كاشش" و هذه مهمة الكاريكاتير .. لكن عندما أجد أنى فى عصر واحد يقول لك فيه " صحيت الصبح و قعدت على السفرة و أكلت حقوق الناس " ببساطة و دون أن يشعر أنه يعمل جريمة و بعدها " قمت رشيت و سلكت ورقى .. طب ده أقول له إيه كرسام كاريكاتير! أقول له مثلاً يا شريف لما أهاجمه؟!"

و هناك شىء أخر .. كنا من لحظة ظهورنا أنا و أبناء جيلى من الرسامين و الأدباء رافعين شعار(نحو غد أفضل) .. حتى إن صديقنا الفنان الجميل صلاح جاهين كتب أغنية تقول " نور الفجر نادى من بعيد .. بشر بالسعادة بيوم جديد .. بكرة أحلى من النهاردة و كل ماده الكون يدور يبدر زهور نور " بمعنى آخر أنا شخصياً كنت أشعر أن مهمتى هى التنبيه و سأعود مرة أخرى لصلاح جاهين لأنه ابن جيلى وكان "نورتنا" كان له قصيدة و هى رباعية من رباعياته الشهيرة يقول فيها :

أنا قلبى كان شخشيخة أصبح جرس

جلجلتبو صحيو الخدم و الحرس

قمتوا ليه خفتوا ليه

لا فى إيدى سيف و لا تحت منى فرس عجبى

هذه الرباعية أنا أعتقد أنه لو قدر لى أن أضع شعاراً لرسامى الكاريكاتير فى العالم لكان هذا هو الشعار الذى أتمناه .. إذن عندما تتكرر الأشياء و يشعر الواحد أنه يكرر نفسه .. عندما أجد أمراً سلبياً و أهاجمه ثم أجده " بكره وبعد بكره " نحن لسنا مطربين نقول " يا سيدى ده غلط يا عينى ده غلط " ليس معقولاً أبداً .. و عندما وجدت أن ما بقى لى من العمر أحب أن أقضيه فى عمل الخير للآخرين غيرت الشعار إلى (نحو بعد بعد غد أفضل) و بدأت أتواصل مع أبناء ما بعد بعد غد و هم الأطفال .. و كان من الأشياء التى عملتها لهم ميثاق حقوق الطفل لأنى وجدت أنه من المهم أن يعرف الأطفال ميثاق حقوقهم لأن الكبار لم يصل إليهم "مقدروش يفهموا " ميثاق حقوق الإنسان .. و شعرت أنى عندما أرسم و أكتب للأطفال عن حقوقهم ربما عندما يكبرون يستطيعون البحث عن حقوقهم بشكل " كويس ".

مجموعة (صداقة بلا حدود) و إن كتبت فى الأساس

للأطفال إلا أنه باستطاعتك أن ترى من خلال رشاقة رسومها ' و رقة و سلاسة لغتها ' أن ترى الحياة بشكل مختلف ' أن ترى كم هى جميلة حياتنا حتى و إن ضاقت بنا السبل بعض الشىء ' فلاتزال الحياة جميلة بالأصدقاء و الأحلام و الفنون و المشاعر ' نحن نقاوم القتامة التى تحاول أن تمحو ألوان قوس القزح من حياتنا من خلال هذه الصداقة التى تنشأ بيننا و بين كل ما حولنا فى الكون ' و بهذه الروح عاش الفنان بهجت عثمان ' و بهذه الروح اعتقد أنه محظوظ لأنه كان باستطاعته أن يرى الكون بنظرة مختلفة ' لأنه كان باستطاعته أن يحب الحياة .

سلوى العنانى

بعض أوراقها



مشرقة كشمس يوم صيفى يحمل نسمات بحرية ' تنبض ابتسامتها بالحياة و كأنها طفلة تلهو فوق قوس قزح بعد يوم مطير ' فتمنحك دفئاً و أملاً فى أن الحياة بكل ما قد تحمله من قسوة و ارتباك بها طلاوة ما ' و جمال ما يستحق أن نحياه بكل جزيئات خلايانا . يكمن سحرها فى تلك القدرة على إحالة معاناتها إلى طاقة حب تسع الكون كله ' طاقة حب غمرتنى منذ أول لقاء لى بها عبر أوراقها التيكانت مفتاحى إليها ' تلك الأوراق التى سطرتها الكاتبة الصحفية سلوى العنانى و جمعتها فى كتاب يحمل عنوان (بعض أوراقى) سجلت فيها معاناتها و آلامها ' وضعتها على الورق لتتخفف من بعض أحمالها ' فالكتابة واحة من واحاتها التى مضيت فيها معها ' و فى بساطة و ود جاء تعارفنا و بدأ حديثنا .

تحت عنوان (أنا) كتبت الأستاذة سلوى العنانى عن فترة شبابها و ما كان فيها من قوة و فتوة ' ثم انتهاك المرض لها ' ترفض الكاتبة استخدامى لكلمة المرض قائلة :

اسمحى لى أن اعترض على كلمة المرض أنا اسميها معاناة على اعتبار أن كل البشر يعانون .. هناك إنسان يعانى مشاكل اقتصادية .. آخر يعانى مشاكل صحية أو نفسية أو

عاطفية أو غيرها .. المعاناة تختلف أشكالها لكنها تظل تحت هذا المسمى .

كان لابد من أن أبدأ القصة من بدايتها كى أمهد قارىء هذا الكتاب للتجربة ' أردت أن أقول له أننى فى صبايا المبكر كنت إنسانة مكتملة الصحة .. أرى أن الدنيا أقل بكثير من حجم أحلامى .. و أن الدنيا منحتنى كل شىء بدون حساب .. و بعد ذلك حدثت لى هذه الانكسارة .. فكان لابد من أحدث القارىء عن أحلام الصبا حتى يدرك حجم انكسارتى و كيف حدثت و كيف أفقت.. و رسمت صورة لى و أنا أحلق فى موكب أسطورى تحملنى الطيور البيضاء تحلق بى بعيدا .. ثم فجأة تخلت عنى طيور الأحلام و هبطت إلى الأرض .. هذا الارتطام بين الأحلام و الحقيقة هو الذى جعلنى أفيق إلى حقيقة الحياة و أنها ليست كلها أحلام وردية و طيور بيضاء .. إنما هى مزيج من هذا و ذاك .

توقفت أثناء قراءتى لأوراق الكاتبة الصحفية سلوى العنانى عند عنوان (رسائل لم يحملها البريد) و هى مجموعة رسائل تحمل سطورها الأولى كلمة صديقى ' مما يدل على عدم توجهها لشخص محدد 'و عن قصة هذه الرسائل حدثتنى قائلة :

عندما تضيق الحياة بالإنسان لابد أن يبحث له عن صديق .. و هذه سمة بشرية .. لأن الإنسان كائن اجتماعى يركن إلى الآخرين.. يسر إليهم بآلامه و أحزانه و أسراره إذا كانت هناك أسرار .. عندما نفتقد هذا الصديق أو هذا الشخص الذى يمكن أن يتحمل كل هذا أو الذى أتصور أنا افتقاده لأن الإنسان يمكن أن يكون من الحساسية بحيث يخاف على مشاعر الآخرين و هى خاصية عندى .. فكنت أشعر برغبة فى البوح .. فلمن يكن هذا البوح

ليكن لأصدقائى .. الورقة و القلم .. و لمن أتوجه برسائلى .. إلى أصدقاء ليس لهم عنوان .. ليس لهم هوية.. أسر إليهم بما فى قلبى بالطريقة التى اعتدت عليها و التى أحبها أيضاً وهى أن أكتب.. ووجدت أن هذه الرسائل جيدة فقلت أشارك أصدقاء حقيقين فى قراءة هذه الرسائل التى وجهت يوماً ما إلى أصدقاء لا أعرفهم و لا أعرف عنوانهم .

فى الرسالة الأولى تحكى الكاتبة عن زيارتها لطبيبة نفسية' و بسؤالها عن السبب وراء زيارتها تلك بالرغم من ما يستشعره القارىء من قدرتها على مواجهة ذاتها و مخاوفها '

قالت :

فى الحقيقة هى كانت صديقة جلست أمامها و تحدثت فى

أمور ليست مرتبطة ارتباطا صريحا بالمعاناة و لكنها مرتبطة بنتائجها.. لأن معاناة الإنسان الجسدية لا تنتهى بتحمله للآلام أو عدم تحمله لها .. أو عند تعاطيه لعقاقير أو عدم تعاطيه لها .. خاصة المعاناة الطويلة التى نسميها المزمنة التى تغير خريطة الإنسان .. تغير حياته .. تغير من شكل علاقاته الاجتماعية و الأسرية و العاطفية .. شكل علاقاته مع أصدقائه و علاقاته داخل العمل .. يصبح له مع مرور الأيام والسنين إطار خاص يرسمه و يحدد به هذه العلاقات .. و فى يوم جلست مع واحدة من صديقاتى و تحدثنا فى كلام ما .. وبعد أن افترقنا بدأت أستعيد هذا الكلام و أكتبه .. واعتبرتها طبيبة نفسية لأنها استطاعت أن تفرغ طاقة الضغط الداخلية لدى .. و أن تجعل للقدر الكاتم صماما يخرج به فائض البخار حتى لا ينفجر .. و لذلك صورتها أو تخيلتها طبيبة نفسيةلأنها استطاعت القيام بالدور الذى يجب أن يقوم به الطبيب النفسى و هو عملية إفراغ الضغط من داخل النفس البشرية.

فى رسالة أخرى انتابت الكاتبة لحظة من لحظات الضعف أو الشعور باليأس لازدياد معاناتها' لكنها كانت تقاوم ' و عن تلك اللحظة حدثتنى قائلة:

هذه هى النفس البشرية لو ادعى أحدنا أنه قوى قوة مطلقة.. أنا أجزم و أقول له لقد جاوزت الحقيقة .. و لو ادعى أحدنا أنه ضعيف بشكل مطلق أيضاً أقول له لقد جاوزت الحقيقة .. إنما النفس البشرية بين هذا و ذاك .. استطيع القول إن هذا الشخص قوى إذا ازدادت لحظات قوته فى عددها و تأثيرها عن لحظات ضعفه والعكس إذا كانت لحظات ضعفه هى الغالبة و المحركة له فى الحياة .. فى قمة قوة الإنسان تنتابه لحظات ضعف و سيدنا رسول الله بكى عندما فقد ابنه إبراهيم و تساقطت دموعه الشريفة فوق جثة هذا الطفل لأنه بشر رغم أنه نبى و كان من الممكن أن لا يضعف فى هذه اللحظة إلى هذه الدرجة و لكن روعة شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) تكمن فى أنه كان بشرا يشعر بما يشعر به البشر و يتألم بما يتألم به البشر .. فأنا فى رأيى أن لحظة الضعف هذه ليست نقطة ضعف إنما هى نقطة حقيقة .. أنا لابد و أن أضعف .. وكل إنسان لابد له أن يضعف .. لكن البراعة و القوة الحقيقية فى ألا تسيطر عليه لحظات الضعف و ألا تكون هذه اللحظات هى المحركة لأفعال الإنسان و لتصرفاته و لقراراته فى الحياة .. يجب أن تكون

لحظات القوة هى صاحبة الهيمنة و السيطرة على شخصية الإنسان .

فى الرسالة ذاتها كتبت أنها كانت تبكى لحظة آذان الفجر' و استمعت إلى نداء المؤذن " الصلاة خير من النوم " فنهضت و هى تتمتم " وخير من البكاء " و عن ذلك قالت :

هنا اللجوء إلى القوة العظمى .. فى قمة الضعف لا يوجد ملجأ.. لا يوجد ملاذ .. أين سيذهب الإنسان الضعيف و قد انتصر عليه ضعفه .. ليس هناك ملجأ إلا القوة العظمى .. القوة المطلقة .. قوة الله عز و جل .. فمع كلمات الآذان عادة الإنسان المؤمن الوطيد الصلة بالله عز و جل تذوب مشاعره لسماع كلمات الآذان .. و لذلك مثلاأمرنا الرسول (صلى الله على وسلم) أن نردد كلمات الآذان مع المؤذن تأكيدا و ايقاظا لمشاعرنا .. فعندما يقول المؤذن " الصلاة خير من النوم " إذن الصلاة خير من حاجات كثيرة جداً من النوم و المتعة والاسترخاء .. و لحظات النوم لحظات ممتعة جداً ..أنا فى هذه اللحظة لم أكن نائمة أنا كنت أبكى فقلت " و خير من البكاء " لجوءا إلى القوة التى أرى أنها تخلصنى من أى شىء مؤلم فى حياتى .. فوجدت إن اللجوء و الركون إلى الله

عــز و جل هو الحل و الملاذ هـو كل شـىء .. هـو مـخلص الإنسان من متاعبه .

للكاتبة الصحفية سلوى العنانى واحات عدة تسكن إليها كلما ندر الظل و استعصى الأمان كما وصفتها فى أوراقها وبسؤالها عن تلك الواحات أجابت :

أرى أن الحياة صحراء .. الشمس حامية جداً و الرمل غير مساعد فى الخطو .. و الماء نادر .. إذا رضى ربنا عن إنسان يرزقه واحة .. هذه الواحة لأنها ملاذ السائر فى الصحراء أرى أنها ملاذ السائر فى الحياة .. و تختلف الواحات.. قد يكون التوفيق فى العمل و الدراسة واحة للإنسان .. قد يكون التوفيق فى الحياة الزوجية ملاذا و واحة للإنسان .. و الواحات تختلف من وقت إلى وقت .. بمعنى قد يكون فى فترة من الفترات الشخص واحته إنسانا يحبه قد تكون رحلة يذهب إليها .. قد تكون صورة يراها .. قد تكون نوماً بعد أرق .. كل هذه الواحات يركن فيها الإنسان و يجد فيها الظل و الماء و السعادة و الجمال و المأوى .. فى واحتى صورة حلوة رسمها الفنان الجميل يوسف فرنسيس .. و فى واحتى أغنية جميلة جدا كتبها مرسى جميل عزيز و وصلتنا

بصوت فيروز " لم لا أحيا و ظل الورد يحيا فى الشفاه .. لم لا أحيا و فى قلبى و فى عينى الحياة .. سوف أحيا .. سوف أحيا " و فى واحتى كتاب جميل لأستاذنا كلنا و أحد عمالقة القرن الماضى الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود .. واحتى الآن إذا قمت بإعادة كتابة هذا الكتاب.. قد تكون ابتسامة وكلمة من حفيدى وهو يقول لى " خليكى معانا يا تيتا نامى هنا" هذه واحـــة يمكن أن تعطى ســعــادة لأيام طويلة .. فالواحات موجودة فى حياتنا على شرط أن نعثر عليها .. كلنا سنجد عشرات الواحات كل يوم فى قطعة موسيقى .. فى صورة .. فى كلمة .. فى مجاملة لطيفة لزميل أو صديق أو جار .. فى ابتسامة أم لابنها فى الصباح .. فى دعاء زوجة لزوجـهـا و هو خـارج من المنزل .. عـشـرات و عـشـرات من الواحـات لكن يجب أن تكون قلوبنا مـفـتـوحـة لاستـقـبـال هذه الواحـات و ايجادها داخلنا ... نحن الذين نصنعها لأننا إذا رفضنا سنظل نعيش فى جفاف الصحراء و رمالها وقفرها وفى حرقة شمسها .. و أتمنى أن يجد الناس واحاتهم فى كل وقت و أن تكون هذه الواحات متصلة لتحميهم من هجير و وحشة الصحراء .

كتبت الأستاذة سلوى العنانى فى أوراقها عن اتساع العالم فى ناظرها نتيجة لمعاناتها ' و قد حدثتنى قائلة :

أرى أن المعاناة تثقل الإنسان .. تجرده من أنانيته .. من طمعه .. تشفف روحه .. تجعله أقرب إلى الإنسان المتصوف لأن احتياجاته الدنيوية تصبح بسيطة جداً .. تصبح آماله أكثر عالمية .. بمعنى عندما يتمنى الخير فهو يتمناه لكل الناس .. عندما يتألم الإنسان يشعر بآلام الآخرين .. لقد بلغت بى الحساسية أننى أحيانا لا أستطيع أن أزور صديقاً حميماً مريضاً و يتألم لأننى لا أستطيع تحمل رؤيته و هو يتألم لأننى أعرف تماما ما الذى به .. فالإحساس بالمعاناة يجرد الإنسان من ذاتيته و يجعله أكثر إنسانية .

تحت عنوان (حوار مع صديقى اللدود) تحاور الكاتبة معاناتها مستخدمة تضادا فى الوصف ' فهو صديقها اللدود' و عن هذا الحوار المتخيل قالت :

عندما يعانى الإنسان مشكلة ترافقه .. قد تكون مرضا أو عجزا اقتصاديا كما قلت فى بداية حديثنا فتكون فى حياته حقيقة فظيعة يكرهها لكن هذه الحقيقة تلازمه و إلا لما عانى .. فأنا مرة فكرت و جلست أكلم هذا الصديق السخيف الذى

بليت به و أنا أعلم جيداً أنه سيلازمنى طيلة حياتى .. ربما أصدقائى الذين أحبهم تفرق بيننا الأيام بسفر أو بغيره ونفترق جسدياً .. إنما هو ليس ملازمًا لى فقط لكنه بداخلى .. فأنا تصورت أنه صديقى لأننا أصبحنا نعرف بعضنا البعض جيداً هو يعرفنى " كويس " جدًا جداً وأنا عرفته بالخبرة " كويس " جداً جداً.. فنحن متلازمان و من هنا كان حوارى معه .. هو حوار يبدو متخيلاً لكنه قائم على حقائق .. عندما أكتب ما الذى يدور بداخله فأنا أتحدث باسمى وباسمه أو بقلمى و بقلمه لكننى فى النهاية قلت له إنك صحيح ستظل ورائى حتى تنتصر فى النهاية انتصارا ماديًا .. لكن هناك جزءا منى لن تصل إليه أبدا و هو الروح و الضمير و الإيمان .. لن تصل إليه أبدا لأن هذا الجزء لا يصاب و ساعاتها سأرفع إليك يدى بعلامة النصر .. لأن المرض قد يستطيع أن يهدم الجسم البشرى إلى النهاية لكن إذا أراد الإنسان أن يدخل معه معركة حقيقية سيدخل بالمناطق التى لا يستطيع أن يخترقها المرض و هى الروح و النفس و المشاعر و الضمير هذه الأشياء هى الإنسان الحقيقى .

ترى الكاتبة أن معاناتها الجسدية هى منحة من الخالق و

عن ذلك حدثتنى قائلة :

أنا فى الحقيقة أحببت أن أتحرك بالحروف العربية منحة ومحنة .. أراها منحة لأن المعاناة تحول الإنسان من مخلوق أنانى إلى مخلوق تتسع رؤيته لتغطى العالم بكل ما يحتويه من بشر و كائنات و من حتى موجودات .. أعتقد أنه إذا لم تكن هناك مشاكل تعترى الناس و كان كل الناس ناجحين وموفقين و كل الناس يحققون رغباتهم لما كان العالم بهذا الجمال .. إنما الذى يعطى العالم هذا الجمال هو الإحساس بالضعف و القلق لأن الثقة المطلقة من البشر فى الحياة و فى النجاح غير مطلوبة .. لابد أن يعترى هذه الثقة شىء من القلق و التوتر فهو الذى يدفع الإنسان لعمل الخير .

اختتمت الكاتبة الصحفية سلوى العنانى أوراقها ب"روشتة " تحمل ثلاثة أنواع من الدواء ' الحب و الرفض و الابتسامة ' و بسؤالها عن قصة هذه الوصفة التى أرى أنها سحرية

أجابت ضاحكة :

هى ليست سحرية هى واقعية .. أنا بعد هذه الرحلة اكتشفت أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدون هذه الأشياء الثلاثة ليتحقق له التوازن النفسى مع الحياة .. السعادة

ليست شيئا مطلقا إنما شيء نسبى ... من يفتح قلبه بالحب للناس و للكائنات و الكون سيتحقق له شيء من الرضا النفسى يزيد و يقل مع قدرته على العطاء .

أعلق هنا قائلة أن كلماتها عن الرفض كانت أكثر من كلماتها عن الحب و الابتسامة كما جاء بالأوراق ' فأجابت :

تماماً .. لأن فى رأيى أن الرفض هو إثبات لوجود الإنسان على الأرض .. أن يكون الإنسان مستسلماً هو نوع من السلبية الرديئة .. لابد أن يكون الإنسان ايجابيا مع الحياة .. انعدام هذا الرفض قد يسبب للإنسان آلاما عدة وهى التى أردت أن ينتبه القارىء إليها لأن بعض الناس تقدم تنازلات دائماً .. أين هم من الحياة ؟! لابد أن يكون للإنسان موقف فى الحياة و إلا فى رأيى لايكون إنساناً يصبح أى كائن أخر منقادا .. الإنسان إرادة .. و إرادته تتمثل فى الرفض .. أن يثبت إنسانيته عن طريق الحوار و الجدل مع الحياة مع معطيات الحياة المختلفة .. يمكن أن نرفض الظواهر الجوية.. مثلا نحن نرفض البرد فنتدثر وهذا الذى أدى إلى التطور لو أن الإنسان الأول قنع بما وجده فى الغابات لما تطور إنما هو رفض هذا الواقع البدائى و أراد أن يحسنه و ما زال الإنسان حتى وقتنا هذا يعيش هذا التحدى

مع الحياة كى يحسنها لتحقيق أقصى قدر من السعادة على
الأرض.. فالرفض وسيلة تقدم على المستوى العام و وسيلة
رضا نفسى على المستوى الفردى . أما الابتسامة فهى ليست
متشابهة لأننا فى اليوم الواحد نقابل عشرات الابتسامات ..
هناك ابتسامة مطبوعة .. ناس مبتسمة دائماً لا تشعر معها
بطعم أو عمق.. و هناك ابتسامة للوظيفة بمعنى واحد وظيفته
أن يبتسم فى وجهك موظف فى بنك مثلا أو شركة يقولون
له " لازم تبتسم فى وش الزبون " فيضطر للابتسام و ربما
يكون متعباً .. أنا فى رأيى هذه ليست ابتسامات .. هذه
انفراجة شفاه .. الشفاه تنفرج لكن هل يبتسم الإنسان ؟ هذا
هو السؤال .. الابتسامة شىء مختلف ، هناك ابتسامة الرضا
وهناك ابتسامة القبول و هناك ابتسامة التحدى .. أنا أريد
التأكيد على ابتسامة الرضا و القبول و التحدى لأن الإنسان
عندما يكون فى تحدى يكون مبتسماً جداً و ليس متجهماً ...
و لكن الابتسامة التى اعتدنا عليها و هى انفراجة الشفاه
تفقد طعمها مع مرور الزمن لأنها لا تصبح ابتسامة فى
حياتنا العادية نقول عليها ختم لأنك إذا قابلت إنسانا يبتسم
لك ابتسامة وظيفة تلاقيك سبحان الله "مش " قادر تبتسم له
.. إنما الذى يبتسم ابتسامة قبول تجد الابتسامة من حيث لا

تدرى و لا تعلم نبتت فى وجهك و أشرقت .. و الابتسامة لغة عالمية لأنك إذا ابتسمت لواحد كورى مثلا لا يعرف كلمة واحدة من العربية سيبادلك الابتسامة و نفس نوعها .. فهكذا تكون الابتسامة أحد وسائل تنقية النفس فتكون أحد وسائل العلاج .. و أحد العقاقير التى أصفها لتحقيق سعادة الانسان .

و أورد هنا نص الوصفة الإنسانية إن جاز التعبير كما كتبتها الأستاذة سلوى العنانى و اختتمت بها أوراقها ' فلا يوجد أعذب و أصدق منها ختاما للقائى معها ..

"روشتتى تحمل ثلاثة أنواع من الدواء

الحب .. الرفض .. الابتسام

لا ليست بهذه البساطة ..

فالحب ليس هو هذه العلاقة التقليدية بين اثنين ..

و الرفض ليس هو هذه (اللا) نطيح بها فى وجه كل شىء ..

و الابتسام ليس هو هذه الانفراجة البلهاء ..

فالحب هو أن تهب نفسك للحياة .. اعطها للقيمة العليا أينما وجدتها .. اعطها للجمال و الحق و الخير و لا تضن بها لخدمة هذه القيم و ستكون سعادة المنح لديك هى أجمل جزاء

أرفض .. أرفض بقوة و عنف .. أرفض القيود تكبل خيالك و أقدامك .. حطم أى سلاسل أو أى سدود .. فالعالم ملكك وحدك أنت سيده و سلطانه .. ارفض أن يأخذ أحد بعضاً من حقك .. ارفض أن يشدك شيء للخلف و يجذبك إلى ما تكره أو ما لا تريد .. لا تقتل كلماتك على شفتيك .. و لا تئد خيالك على أعتاب رأسك .. دع تمردك يحطم فى طريقه أى شيء .. و حقق أمنية الإنسان فى أن يكون حراً .

لا تترك أصابعك تمسح على سطح الأحداث بنعومة .. ولكن دع أظافرك تخدشها مخلفة بصمة تغييرك و إرادتك .. بعد هذا .. و هذا يمكن أن تأخذ جرعة من الدواء الأخير الابتسامة ..

فعندما يمتلىء قلبك حباً ..

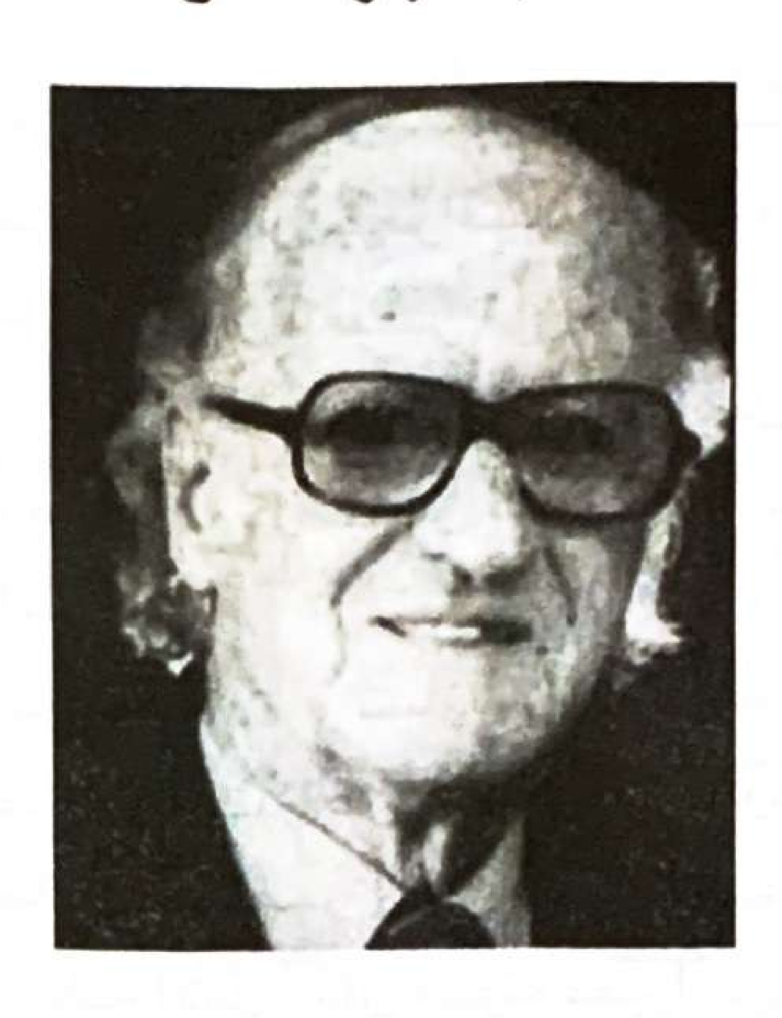
و عندما ينطلق عقلك حراً متمرداً ..

عندها ستتألق روحك مبتسمة ..

ساعتها سيكون لهذه العلامات المرسومة على وجهك معنى جديد .. و ستكتشف أن الابتسامة ليست روتينا تقابل به الآخرين و إنما هى نبت طبيعى غرسته بإرادتك فى داخلك .. و روته يد إصرارك فأثمر و تألق على شفتيك .. "

سليمان العيسى

أحلام شجرة التوت



«كنا نحلم ..
أنَا سوف نهز الشمس
فتسقط فى أرض الفقراء
بيادر من قمح و غلال
كنا نحلم .»

كنت أود أن ألقاه وجها لوجه لكن كان يفصل بيننا البحر الأحمر و عدة تضاريس جغرافية ' حيث يقطن الشاعر السورى الكبير سليمان العيسى فى (تعز) باليمن و أنا فى القاهرة ' لكن المدنية الحديثة أتاحت لنا التواصل فعبر الهاتف كان لقاؤنا . ما عرفه كل منا عن الأخر كان عبر الصوت و بيننا أحلام الشاعر
«أحلام شجرة التوت» و تساؤلاتى و انطباعاتى عنها.

ينبئك الصوت بالكثير عن صاحبه ' فبالرغم من تخطى الشاعر الثمانين من العمر إلا أن صوته انساب فى حيوية تشعر معها بدفء الأمل ' كان صوته معبرا عن نفس صادقة محبة لأبعد حد للكون و الناس تماما ً كأحلامه التى قسم من خلالها حياته إلى خمسة أجزاء و هى اللغة ' الأرض ' أنا وهى ' الحلم ' و الأطفال .

بدأ الشاعر " أحلام شجرة التوت " [١] بعلاقته باللغة العربية و جمالياتها منذ الصغر و عن ذلك حدثنى قائلاً :

أنا طفولتى كانت فى الريف .. أنا ابن قرية صغيرة فى شمال سوريا.. من حارة فى هذه القرية اسمها بساتين العاصى و العاصى نهر فى سوريا معروف يمر من أمام بيتنا تماما .. فبساتين العاصى هى طفولتى و بيتنا كان هو الكُتَّاب و كان المكان الوحيد الذى يتعلم فيه الأطفال .. ووالدى الشيخ أحمد رحمه الله هو أستاذى و أستاذ أولاد القرية كلهم بل و أستاذ الريف كله .. لأنه لم يكن فى الريف كله مدرسة فأنا حفظت القرآن الكريم و أنا فى السابعة أو الثامنة من عمرى على الأكثر .. ذلك لأن الوالد كان يحفظنا القرآن و نحن أطفال و كنت أردده كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة .. كنت أردد السورة لأننى كنت أذاكر للتلاميذ فى غياب الوالد.. و بعد ذلك كان يحفظنا الشعر بدءاً من المعلقات إلى شوقى و حافظ.. و كنت أحفظ من الشعر العربى آلاف الأبيات و أنا لم أتجاوز العاشرة و خاصة ديوان المتنبى الذى كان يفرض علىّ الوالد فرضاً أن أحفظ منه كل يوم قصيدة قبل أن أخرج للعب مع رفاقى الأطفال و طبعا كنت أشتم أجداد المتنبى و آباءه كل يوم لأن رفاقى الأطفال يلعبون و أنا الوالد حاجزنى " ما

تخرج للعب حتى تحفظ قصيدة للمتنبى " فكنت أحفظ القصيدة و أخرج بعد ذلك لكن بعد أن يكون الأطفال قد انتهوا من اللعب .. و لكن هذه الدروس المبكرة كانت ثقافتى الأولى فاللغة العربية غرست فى لحمى و دمى .

فى (أحلام شجرة التوت)كتب الشاعر عن رسالة تلقاها من دارسة شابة من المغرب العربى تخبره فيها أنها تعد دراسة للحصول على درجة علمية بعنوان (الواقع و المثال فى شعر سليمان العيسى) ' و يرى شاعرنا أن هذا العنوان موفق فى وصفه لأبعد حد ' و قد علق على ذلك قائلاً :

اعتقد أن هذا العنوان يمثلنى و يختصرنى بتكثيف عجيب .. الواقع أنا عشت حلماً عربياً .. فتحت عينى على حلم عربى هو أن يكون لى وطن عربى واحد و أمة عربية واحدة و دولة عربية قومية تحمينى و تحمى أطفالى و أحفادى من التشرد .. نحن كنا قافلة التشرد الأولى فى لواء الإسكندرونه عندما اقتطع هذا الجزء الأخضر الجميل من سوريا و قدم هدية للجارة تركيا فى مطلع الحرب العالمية الثانية .. فنحن كنا أطفال اللواء تقريباً و كنت أنا منهم .. كنا قافلة التشرد الأولى فى أواخر الثلاثينيات من القرن الماضى و لذلك ارتبطت حياتى كلها بقضية واحدة هى القضية العربية و الهم

العربى و الحلم العربى .. أن لا يشرد أطفالى و أحفادى فى المستقبل كما شردت أنا .. لذلك كل كلمة كتبتها فى حياتى أعتقد أنها كانت تنبع من هذا الحلم العربى الذى عشته لحظة بلحظة منذ طفولتى و لا أزال أعيشه إلى الآن ... فالواقع هو هذه الحياة المشردة المعذبة التى أمضيناها فى الطواف هنا وهناك و أخيراً استقر بى المقام هنا فى اليمن لأنى متقاعد أمضى وقتى فى القراءة و الكتابة و زوجتى أستاذة فى جامعة صنعاء .. لكن الحلم العربى منذ فتحت عينى عليه فى قريتى الصغيرة النائية فى شمال سوريا مايزال يملأ علىّ حياتى ويملى علىّ كل كلمة أكتبها شعراً أو نثراً فهذا هو الواقع الذى عشته... أما المثال فهو هذا الحلم الذى حدثتك عنه .. الحلم العربى الذى لاأزال أعده أغلى ما فى حياتى .. أنا شخصياً حالم لا شاعر و أصر على أنى لست شاعراً و إنما حالم عربى أحلم حلماً عربياً يحلمه الملايين معى ففى قناعتى لست أنا وحدى.

حياتى كلها مازالت رحلة مرة ' و سفراً بين الشوك و الصخر ' و النار و الجليد ' فى هذا الزمن العربى المهشم ' الذى هشمنا معه ألف مرة . و لكننى مازلت ـــ و لا أدرى

لماذا ؟ ـــ مازلت متشبثاً بحلمى العربى الذى فتحت عينى عليه . هذا الحلم الذى أطفأه الكثير من الإخوة الشعراء ' ولم يروا فيه إلا السواد ' و إلا الرماد ' (متى يعلنون وفاة العرب) لن أعلن وفاتى . إن جذورى لاتزال فى أعماق هذه الأرض ' و نحن لسنا نهاية الدنيا ' أيها الإخوة النائحون . سيأتى بعدنا من يشعل النار فى هذا " الهشيم " و يحرك الحياة فى هذا " التابوت " . فلنفتح النوافذ ' و لنواصل أغنيتنا المضرجة بالألم ' و الدماء ' و الدموع للأمل الأجمل والأقوى و الأبقى ' للطفولة و الأطفال " ص٨٨

حدثنى الشاعر سليمان العيسى عن أن الكثير من الشعراء العرب قد تعبوا من هذا الحلم العربى و استطرد قائلا :

أخوتنا الشعراء كانوا يتأججون فى فترة من الفترات ثم يتعبون .. ألاحظ أنهم كانوا يتشاءمون كثيراً و ينقبضون إلى آخره .. أنا لم أترك نافذة لليأس تتسرب إلىّ طوال حياتى رغم كل الظلمات الحالكة التى عشناها و نعيشها كل صباح .. و المآسى و الكوارث التى تمربنا كل يوم .. و أنا مازلت مصراً على أن المستقبل واعد و أننى لا يمكن أن اتخلى عن أحلامى و آمالى .

اتجه الشاعر السورى الكبير سليمان العيسى إلى كتابة الشعر للأطفال منذ عام ١٩٦٧ ' و عن السبب وراء اتخاذه هذا المنحى قال :

باختصار فى عام ١٩٦٧ كما يعرف الجميع مررنا بنكسة سميناها نكسة حزيران (يونيو) هى الكارثة الكبرى التى حلت بالعرب .. فقد احتلت الأراضى العربية ' احتلت اسرائيل أجزاء كبرى من الوطن العربى من سوريا و الضفة الغربية فى فلسطين حتى سيناء فى ذلك الوقت.. تلك الكارثة جعلتنى أشعر بأن جدراناً سوداً قد أطبقت علىّ و أنا لست ممن يستسلم لليأس كما قلت.. فبدأت أدق هذه الجدران السود كى أفتح نافدة للمستقبل ووجدتها يومئذ فى عيون الأطفال .. الأطفال بالنسبة لى هم المستقبل .. مستقبل هذه الأمة و طاقتها التى تتجدد كل يوم ..أنا أولد مع كل نشيد أكتبه للأطفال فمنذ ٣٥ عاما إلى الآن لم أنقطع عن الكتابة للأطفال إلى جانب كتابتى للكبار طبعاً .. الأطفال هم الوعد الذى تخبئه هذه الأمة .. هم كأمواج البحر كما أشبههم دائماً.. فأمواج البحر تتكسر لكن البحر باق لا يموت .

تحت عنوان (أنا وهى) يصور الشاعر سليمان العيسى

بلغة شديدة العذوبة و الرقة قصته مع رفيقة دربه الدكتورة ملكة أبيض 'وكأنه يحكى حكاية من حكايات ألف ليلة و ليلة' أورد هنا نصها كاملاً ليعيش معه القارىء لأن صدق مشاعره و انسيابية كلماته تغنى عن أى تعليق " قالت شهرزاد : بلغنى أيها الملك السعيد ' ذو الرأى السديد ' والحلم البعيد ' أن الفتى "خولان " كان يحمل ربابته ' و يذيب قلبه حبات على الوتر يسمونها قصائد ' تشتهيها الأعناق الحلوة قلائد ' فلما رأى "خولة" الصبية الناعمة السمراء ' وكانت أعنف من الشعر' وأعذب من الضياء ' و قد قدمت لتوها من مكان بعيد ' بفكر متوقد و روح جديد ' أحس أن هذه الصبية التى تتفجر حيوية و رقة ' هذه الأغنية الشاردة قد خلقت لربابه ' و خلق لها ' و أنه منذ اللمحة الأولى قد صار و إياها نغمة و احدة .

كان يحملها ' و يطير بها بعيدا فى ضوء القمر ' يمشيان حول المدينة العريقة الكبيرة ' مدينة الصخر و النسمة الجافة الناعشة 'يمشيان منذ هبوط المساء ' حتى يتعب الليل ' يداهما متشابكتان ' و عيناهما تبرقان بالحب و السعادة ' وخطاهما أشبه بنقرات" البيانو" المتلاحقة الرشيقة ' فى واحدة من المعزوفات التى تزخر بالشعر و الحياة .

فإذا ما طلع النهار ' انغمس هو فى عمله المضنى الدءوب ' و انغمست هى أيضاً فى عمل مماثل .

المتحابان الشابان ' كلاهما كان يعمل .. و العمل فى نظرهما جوهر الحياة ' و ينبوع مسراتها الحقة ' و مقدار الجدارة الإنسانية .

من يصدق ' أيها الملك السعيد ' ذو الرأى السديد ' أن شابين متحابين ينفقان الساعات الطوال ' سيراً على الأقدام فى ضوء القمر ' و هما يتحدثان ' و يتناقشان ' فى كل ما يخطر على البال من شئون الفكر و الفن و السياسة والمجتمع ' و الحب و الحياة ؟

إنهما لا يزالان معاً على طريق الحياة ' أحلام تتبدد وتتجدد ' و كفاح لا يهدأ ' يرتاحان قليلا ' و يتعبان كثيراً . يشقيان و يسعدان ' يفرحان و يتألمان ' يحققان بعض مايريدان ' و يصدمان فى الكثير مما يريدان" ص.٨٦

و رداً على سؤالى إياه عن مدى تأثير هذه العلاقة الرقيقة التى جمعت بينه و بين زوجته على أعماله الشعرية أجاب قائلاً:

بكل بساطة أقول و أصرح دائماً فى كل لقاء تليفزيونى أو

إذاعي أو صحفي أنني مدين لزوجتي بنصف إنتاجي و لولاها كان من الممكن أن أتعب و أن أتخلى عن الكثير .. زوجتي إنسانة رائعة جداً و أنا بصراحة أملك نصف ثقافتها فقط .. فكل كتاب قرأتُه قرأت مقابله خمسة أو ستة إلى عشرة كتب .. كانت دائماً تلخص لي هذه الكتب التي تقرأوها .. و هي تتقن الفرنسية و الإنجليزية كما تتقن العربية تماماً و بنفس المستوى فكانت تقرأ مئات الكتب و تلخصها لي و كنت أستفيد من هذه التجربة كثيراً .. إلى جانب العلاقة الحميمة طبعاً و الصميمة التي تجاوزت نصف قرن الآن .

و لايزال الحلم باقياً .. إنه حلم يصارع من أجل أن يكون " الحلم هو الصحة ' و الواقع الذي من حولي هو المرض ' والمرض طارىء ' مهما طال و مهما استشرى ' و الصحة هي الهدف ." أحلام شجرة التوت ص٨٨ .

سمحة الخولى

حياتها مع الموسيقى



« كان رفيقى الأثير الحميم المؤنس هو الموسيقى ' استمتع بها و أسعى لنقل هذا الاستمتاع و هذه الخبرات الجميلة إلى غيرى في قاعات المحاضرات ' أو على أمواج الأثير والتليفزيون 'لكى أقربها للجماهير العريضة ..»

فى دفء وسلاسة أشبه بنقرات البيانو استقبلتنى الدكتورة سمحة الخولى في منزلها بحى المعادى ' أتذكرها مقدمة لبرنامج تليفزيونى شهير عن الموسيقى الكلاسيكية' تتحدث فيه عن الموسيقى بحب و تقدير و قد ارتسم على ملامحها تعبير جاد يوحى بجلال المادة التى تقدمها ' وفى لقائى هذا استشعرت خفة ظل و مرحاً خفياً فى روحها .. فوراء عملها بالموسيقى قصص لطيفة .. و كفاح لا يهدأ .. وأحلام لا تنضب .

بدأ حديثنا من بداياتها مع الموسيقى و عن ذلك شرعت تحكى قائلة :

بدأت أحب الموسيقى فى الطفولة .. و اكتشفوا هذا فى روضة الأطفال و فى البيت .. و لذلك اشترى والدى لى بيانو .. و كان عندى وقتها ثمانى سنوات و كانت حاجة مبكرة جداً .. لكن البداية لم تكن سعيدة لأن مدرستى كانت سيدة

يونانية كبيرة فى السن و كانت حزينة جدا .و كان من الممكن أن تصرفنى عن الموسيقى تماماً لو استمر الحال معها.. لكن الحمد لله انتقلنا من شبرا إلى حى مصر الجديدة .. فأصبحت أنا و أخى بين أيدى مدرس إيطالى لطيف جداً جداً.. و أصبحنا نتعلم الموسيقى سنوات و سنوات على سبيل الهواية و كان شيئاً ممتعاً جداً .. كان بيتنا يوم الجمعة صباحاً كلنا فيه مشغولون .. أنا و أخوتى .. أنا أتعلم بيانو .. و أخوتى الإثنان يتعلمان كمنجة ..

أفردت الدكتورة سمحة الخولى مساحة فى كتابها (من حياتى مع الموسيقى) للحديث عن والدها المفكر و أستاذ البلاغة و الأدب العربى الشيخ أمين الخولى رحمه الله .. يستشعر القارىء لها جمال و حنو العلاقة التى جمعت بين الأب و الابنة حتى و إن اختلفت الرؤى و لو قليلا فى بعض الأحيان " والدى رحمه الله ' هو الذى فتح قلبى و عقلى لموسيقى القرآن الكريم و إعجاز بنائه اللغوى ' و صوره البيانية المعجزة ليس فى بلاغة تصويرها فحسب ' بل و فى ملاءمة جرسها للمعنى و للصورة النفسية .. و منه تعلمت كيف ألاحظ و أحلل و أعجب ببساطة الموسيقى فى الشعائر

الإسلامية ' و هو الذى نمى لدى الإحساس بقيمة التلاوة المعبرة بصوت مؤمن خاشع مثل صوت الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود ' و كانا من أحب المقرئين إليه صوتاً وأداء و فهماً ' و هو الذى حبب إلى و إلى إخوتى جمعيا القراءة ' و مهما اختلفت مناهج حياتنا فلا يزال الأدب والقراءة أنيسين لكل منا فى حياته عبر السنوات .. و ما أكثر ما أدين له به من المتع الفنية و الثقافية الرفيعة التى وجهنى لتقبلها و أثرى حياتى بها ' و كان بذلك يمنحنى عطاء لا يقدر بمال و يفتح عينى و قلبى و عقلى لكل معانى الجمال و الحق والخير فى الحياة .. و ما أشد حاجتنا إليها عبر مراحل العمر كلها ! و فى مرحلة من مراحل النمو ' كان يحلو له أن يسميها مرحلة "انقسام الخلية " إيماناً منه بالعلم التجريبى كان لابد من المواجهة و تصارع الأجيال ... " (من حياتى مع الموسيقى ص ١٦٧)

بالرغم من حرص والدها الشيخ الجليل أمين الخولى رحمه الله على تعليمها الموسيقى إلا أنه كما ذكرت فى كتابها رفض فكرة عملها بالموسيقى و بسؤالها عن السبب وراء ذلك أجابت: و الله كانت حاجة غريبة جداً .. كان موقفه فعلاً متناقضاً

بعض الشيء .. يعني الذى ينفق على تعليم هواية البيانو سنوات طويلة و كل سفرية.. و كان كثير السفر و يحب السفر جداً.. كل سفرية لأسبانيا .. لرومانيا .. للصين .. لأوروبا كان بيشترى لى هدايا عبارة عن نوتات موسيقية .. و بعد ما «جت ساعة الجد» و قلت أنا عايزة أعمل بالموسيقى رفض قائلاً " لأ أنا ماعنديش" بنت تحترف الموسيقى فقلت له" يعنى إيه احترف ؟ هو أنا حاحترف الرقص! ده شيء تانى خالص .. أنا سأعمل مدرسة موسيقى فى التربية الموسيقية " و تحول الموضوع إلى صراع شديد جداً و العائلة انقسمت نصفين .. هو فى جانب و والدتى و أخى أسامة فى جانب أخر .. و بعد ذلك ربنا سهل و اقتنع والدى .. و أتذكر كلماته المشجعة بعد ذلك بفترة عند توديعه لى فى بورسعيد و أنا متجهة بالباخرة إلى أدنبرة عاصمة اسكتلندا بالمملكة المتحدة للحصول على شهادة الدكتوراة فى الموسيقى "إذا ماخدتيش الدكتوراه ما تبقيش بنتى ! "

كتبت الدكتورة سمحة الخولى أن الوالد كان مشفقاً عليها و كان يريد لها حياة منزلية هادئة بعيداً عن صخب العمل ' وأنها أحياناً تظن أنه كان على صواب ' و بسؤالها عما إذا كانت تود حقاً ذلك أجابت ضاحكة :

لا لا "متصدقيش" .. طبعاً لا .. مهما يكن العمل بدون شك تحدى و إضافة كبيرة جداً للشخصية و وسيلة لتحقيق الإنسان لنفسه.. فالحياة المنزلية لا اعتقد أنى كنت "سأنفع" فيها .. لأنى بطبعى عندى طاقة كبيرة جداً .. فكان لابد إنها توجه للحاجة التى أحبها .. لكن ساعات لما كانت تضغط علىّ ظروف العمل و صراعاته.. و كانت أحياناً مزعجة جداً .. كنت أقول لنفسى "و ليه بس وجع القلب ده !" لكنها كانت خواطر ضئيلة و ليست حقيقية .. كانت من بعيد فقط .

ذكرت الدكتورة سمحة الخولى فى كتابها أن الفجوة فى تكوينها السابق ظهرت حين اكتشفت لأول مرة عالم الموسيقى العربية عند دراستها الأكاديمية ' عن ذلك حدثتنى قائلة :

هذا شىء هام جداً .. وكان خطأ وقعت فيه أسرتى و كل الجيل .. إننا تعلمنا بيانو غربى .. فأذنى أصبحت موجهة أو مبرمجة للبيانو .. و أخى كان يعزف كمنجة و أنا أصاحبه على البيانو فكل ما كان موسيقى عربية و مقامات عربية كان بعيداً عنا تماماً .. و اعتقد أن ذلك كان من سمات العصر وهو الانبهار الشديد بالموسيقى الغربية و إلى حد ما الانحياز لها أكثر من الإهتمام بالتراث الموسيقى .. فعندما دخلت

معهد الموسيقى بعد المعركة التى ذكرناها .. و بدأت لأول مرة أحضر حصص العود.. و بدأت أمسك العود وعن طريقه وجدت عالماً جميلاً جداً و كبيراً جداً مغلقاً عنى و لم أكن أشعر به .. و شعرت أن فى ذلك إثراء كبير لمعلوماتى الموسيقية كان ينبغى ألا يغيب عنى طوال تلك المدة .. حتى إن كان فى خوف إنى أظل بعيدة عن عالم المقامات و الإربع والموسيقى العربية لكن الحمد لله يبدو إنها كلها كانت مختزنة بداخلى فلم تحدث مشكلة فى استيعابى لها .

و عن فكرة التوازن الروحى بين الموسيقى العربية والغربية أضافت قائلة :

هذه الفكرة كانت هامة جداً فى جيلى .. لأنه كان يوجد تحيز إلى حد ما ضد التراث الموسيقى العربى مواكب للإطلاع عن قرب على الموسيقى الغربية الكلاسيكية الجادة الجميلة .. فالناس عندما تعرفوا عليها لأول مرة فقدوا توازنهم .. فكان هناك اتجاه إن هذه هى الموسيقى وإن هذا هو الفن و إن غير ذلك ليس صحيحاً أو جميلاً .. و لكن تحقق بداخلنا التوازن الروحى بفضل العميدة الألمانية فى معهد الموسيقى " د. بريجيت شيفر" تصورى ! كانت دائماً تؤكد

إن عندنا فنانين لا يقلوا أبداً عن فنانى العزف الغربى و عندنا من الملحنين و الموسيقيين شخصيات هامة جداً و هى التى ابتدعت فكرة أن محمد القصبجى الله يرحمه يدرس لنا ساعة كل أسبوع فى أى شىء يريده .. و طبعاً أى شىء يريد القصبجى أن يعلمه لنا كان مفيداً جداً .. و كان ذلك بنور التوازن الروحى الذى تحدثت عنه فى الكتاب ..

اتجهت الدكتورة سمحة الخولى إلى الدراسة الأكاديمية والتحليل الموسيقى ' و قد كانت أمنيتها أن تكون عازفة بيانو وعن ذلك قالت :

أنا اتجهت للإثنين .. أنا عندما كنت فى لندن فى بريطانيا عموماً و أنا درست فى إسكتلندا و الإسكتلنديون " يزعلوا جداً " إذا قلنا عليهم إنجليز لأن لهم قومية أخرى .. و طوال المدة التى أمضيتها هناك كان واضحاً فى ذهنى أنه لا يمكننى أن أتقوقع فى التاريخ بمفرده .. و لذلك أخذت الدكتوراة فى موضوع " وظيفة الموسيقى فى الحضارة الإسلامية " و فى الوقت نفسه كونت لنفسى أساساً قوياً فى الموسيقى الغربية من ناحية عزف البيانو .. و أخذت دبلومة الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن فى العزف على البيانو ..

فاستطعت هنا أيضاً أن أحقق نوعاً من التوازن بين الماضى والحاضر و بين الشرق و الغرب .. و أتساءل هنا عن السبب وراء عدم احترافها العمل كعازفة بيانو فأجابتنى قائلة :

بالرغم من أن لدى طاقات فى عزف البيانو غير عادية .. عندى فى الحقيقة سهولة طبيعية جيدة جداً .. لكن حياة العازف تعنى أنه ينقطع كليةً لهذا العمل و هذا لم يكن ممكناً بالنسبة لى .. لأنى عندما رجعت وجدت ثغرات كبيرة فى الحياة الموسيقية فى مصر كان لابد أن أتصدى لها ... فى التربية الموسيقية .. و فى إنشاء الكونسيرفاتوار .. و فى الموسيقى العربية .. و الشعبية .. حاجات كثيرة جداً انجذبت إليها رغماً عنى .. و بذلك ابتعدت عن مجال العزف و لكننى كنت استخدمه فى التدريس .. و أنا أرى أنه من الجميل أن يعرف الإنسان أين يمكنه أن يخدم بأفضل صورة ممكنة .

قامت الدكتورة سمحة الخولى بالتدريس للأطفال فى أولى خطواتها المهنية ' و قد سجلت ذلك تحت عنوان (من مذكرات مُدرسة موسيقى) ' و عن ما إذا كانت تلك المرحلة من حياتها محببة إليها قالت :

كانت مرحلة محببة إلى نفسى جداً .. و أنا لم يكن عندى

أى مانع بعد التخرج من معهد المعلمات للموسيقى أو كلية التربية الموسيقية وبعدعودتى من البعثة أن أعمل مرة أخرى مدرسة موسيقى للأطفال بكل سرور و سعادة .. لكن طبعا لم يكن ذلك متبعاً لأن عادة المتفوقات من الخريجات يتم تعيينهن فى المعهد نفسه .. و ليس فى تعليم الأطفال و هذا خطأ فى رأيى .. أنا أرى إن أفضل الناس لابد أن يكلفوا بتعليم الأطفال .. لأنه إذا استطعنا أن نضع فى عقل الطفل و فى أسماعه .. و فى حياته مفاهيم معينة موسيقية جيدة تخدمه فى المستقبل و تخدم البلد كلها .. تخدم الحياة الموسيقية .. تخلق منه على الأقل مستمعاً ذكياً .. و أنا أرى أن كل طفل بداخله شاعر و لكن المهم كيف نخاطبه كى يتقبل رسالة الموسيقى .. و عندنا فى مصر مواهب .. وهى ليست قاصرة على المدن فقط أنا واثقة من ذلك .. لكن يمكن الطريقة التى يتم بها التعامل مع هذه المواهب هى التى تؤذيها .

تحت عنوان (كتابات حميمة) كتبت الدكتورة سمحة الخولى عن زوجها الموسيقار المصرى الراحل جمال عبد الرحيم ' و العلاقة الإنسانية الدافئة التى جمعت بينهما' ورحلته العلاجية الأخيرة ' لكنها ذكرت لى أنها لا تعرف لماذا كتبت عن قصتهما المشتركة :

لا أعرف ما الذى جعلنى أكتب عن ذلك .. و بعد ما كتبت شعرت بحرج شديد جداً و قلت " و الناس ذنبها إيه .. ويعرفوا الحاجات دى ليه " .. و كدت أن اسحبها من الكتاب .. و لولا أن دار النشر عندهم مستشار أستاذ كبير جداً وإنسان عاقل جداً قال لى لا بالعكس هذا الجزء مكتوب بدفء سنبقيه بالكتاب .. فقلت له أنا هدفى من الكتاب كله أن فى حياتى مواقف مهمة جداً فى الموسيقى لم أكن أقدر أن ألغى هذه القصص منها لأنها مرتبطة بها .. فقال لى إنها من أجمل الحاجات فى الكتاب و لن ألغيها .. و مع ذلك وصلت إنى كدت أقول أنا لست معتادة على رأى المثل الفرنسى " إن الواحد يعيط على كمه .. طريقة مش كويسة " لكن فى النهاية هى معانى إنسانية .. ناس كثيرة جربتها و عرفتها و وراءها أفكار معينة و مبادىء معينة قد تفيد غيرى .

تحت عنوان (الثلج الأسود) كتبت عن الرحلة العلاجية الأخيرة لزوجها ' و بسؤالها عن اختيارها لهذا العنوان أجابت :

لأن الوقت كان فى عز الشتاء الالمانى القارس .. و فى منطقة كان الثلج يصل فيها إلى ارتفاع ٣٠ سم .. و كان ذلك

المزار اليومى بالنسبة لى فى الفترة التى كان موجوداً بها فى إحدى المستشفيات .. و المكان كان موحشاً جداً و ساكناً جداً .. لا توجد فيه أى بادرة حياة يمكن قبل الشتاء كان فى حديقة .. فأنا إحساسى به فى هذا اليوم الذى كتبت عنه أن لونه أسود و ليس أبيض .. و طبعاً هذه مسألة ذاتية جداً والإنسان يكون صادقاً عندما يتحدث عن شعوره الداخلى .. وبعد ذلك شعرت إنه ليس أسود و إنما هذا نهاية الآلام بالنسبة إليه و بالتالى فهو نور و راحة و كل حاجة .. و يمكن بالنسبة إلىّ ليس نفس الشىء .

ضم الكتاب قصصاً عن عدد من الشخصيات الموسيقية التى كان لها تأثير كبير فى المجال الموسيقى فى حياة الدكتورة سمحة الخولى ' نستشعر من خلالها أنها كانت محاطة بمجموعة من العلاقات الطيبة وعن ذلك حدثتنى قائلة :

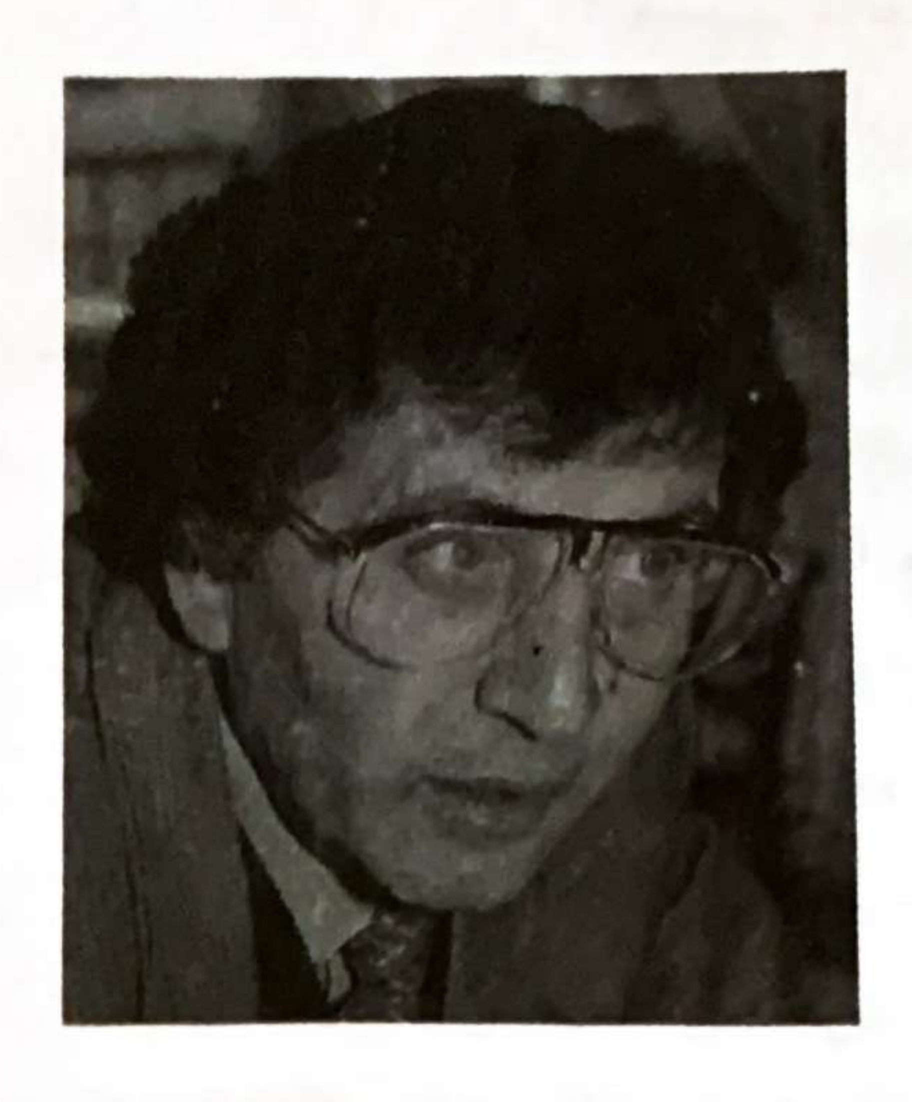
الإنسان يعطى و يأخذ .. و اعتقد أن الشخص الذى يأخذ فقط ينتهى فى الآخر بأن لا يوجد عنده شىء .. و خاصة العلاقات الإنسانية أخذ و عطاء .. و أنا كان حظى جيداً فى الصداقات الحقيقة .. حظى " كويس " فى حاجات كثيرة فى الحقيقة.. الحمد لله .. و لا يعنى ذلك أنه لم تكن هناك متاعب'

كان هناك كم كبير منها و ما ذكر منها فى الكتاب يمكن لا يتعدى الواحد على الألف من الحقيقة.. إنما أنا اعتبر نفسى حظى " كويس " جداً فى الصداقات و الزمالات الموسيقية والشخصيات التى تأثرت بها و استفدت منها .. و هذا نتيجة لأنى أقدر العلاقات الإنسانية و أشعر إنها أساساً مسألة أخذ و عطاء من الجانبين .

و يظل حديث الدكتورة سمحة الخولى عالقاً بذاكرتى كمقطوعة موسيقية لطيفة و مؤثرة .

سميح القاسم

عن الموقف والفن



جاءنى صوته عبر الهاتف هادرا كموج البحر ' صداحا فتيا كتلك الأرض التى شب فيها مناضلا بسلاح الكلمة ' أن تحاور صوتا ينطق شعرا ' يثير بداخلك شعورا غامضا بتدفق الحياة فى أوصالك و شرايينك ' و تحملك نبراته إلى دروب شتى نحو الحرية 'حرية أن ترفض ' حرية أن تكافح ' حرية أن تشعر ' و حرية أن تحيا ' يبقى الصوت عالقا بذاكرتك أبدا ' ذاك صوت شاعر العروبة ـــ كما يحب أن يدعى ـــ الشاعر الفلسطينى الكبير سميح القاسم ' و تلك هى الحرية التى منحنى شعورها و معناها أثناء محاورتى له . استند حوارنا الإذاعى عبر الهاتف إلى كتاب (عن الموقف و الفن .. حياتى و قضيتى و شعرى) الذى يضم أوراقا من مفكرته وبها لمحات عن فترات اعتقاله بالسجون الإسرائيلية ' و قصة من وقائع طفولته و صباه تحمل عنوان (غابة الطفولة)' إضافة إلى نص حديث أجراه معه الكاتب اللبنانى الكبير محمد دكروب عام ١٩٦٨ يتحدث فيه عن نشأته و شعره ' و عدد من المقالات النقدية و البحثية التى تلقى الضوء على مختلف أرائه و أفكاره . بدأ حديثنا من (غابة الطفولة) و عن غابته تلك حدثنى قائلا :

غابة الطفولة هى تسجيل لتجربة شخصية عشتها كما نقول على جلدى .. الغابة حقيقية و هى جزء عزيز جدا من طفولتى يشدنى إلى الأرض من جهه و إلى البشر إلى الآباء والأجداد من ناحية ثانية .. و فجأة فقدت هذه الأرض .. ليس بزلزال أو بركان إنما بعمل بشرى حين أتت قوة غريبة غاشمة و صادرت هذه الغابة و و ضعت حاجزا عسكريا بين الطفولة و الحلم .. بين الماضى و الحاضر .. ولذا كانت هذه الوقفة مع غابة الطفولة .

كتب شاعرنا فى ورقة من أوراق مفكرته عن موقف صادفه " اليوم ' رأيت شابا مصابا بالشلل جالسا فى كرسى ذى عجلتين على مقربة من السوبرماركت . عشرات الناس مروا به دون اكتراث . دنوت منه و سألته : هل أستطيع أن أساعدك ؟

أكون شاكرا لو ساعدتنى بدفع الكرسى إلى شارع هنفئيم (الأنبياء) .. فعلت ذلك بلا تردد ' و حين وصلت به إلى المكان الذى أراده التفت إلىّ بوجه يطفح بالإمتنان ' وقال و أنا أكاد أبصر قلبه على شفتيه :

- شكرا لك يا سيدى .. شكرا جزيلا .. حقا إنك يهودى جيد ! " ص٦٢ .

و بسؤاله عما إذا كان الصهاينة لا يتوقعون خيرا من غير اليهودى ' و هو ما دل عليه هذا الموقف قال :

بالمناسبة هذا الشيء يحدث لى و لعشرات و ربما لمئات العرب .. لأن هناك تعبيرا شعبيا على ألسنة الإسرائليين حينما يريد أن يمتدح شخصا ما يقول هو يهودى طيب أو جيد .. و لذلك هم يطلقونها جزافا دون أن يدركوا خطورة هذا التعبير كأنما الجيد و الطيب هى صفة مرادفة لليهودى فقط .. و طبعا هذه مسألة تعود إلى تراث من الشعور الزائف بالتفوق .. هى حالة منبثقة من عقدة توراتية قديمة .. لكن هذا لا يكفى .. نحن لدينا مثلا فى القرآن الكريم " كنتم خير أمة أخرجت للناس " هذا كلام يجعلنا نحس بالمسؤلية .. بضرورة التواضع .. بضرورة التراحم و التفاهم مع الأخر .. إذن فبين " كنتم خير أمة أخرجت للناس" و بين أنتم الشعب المختار من حيث النص الفارق ليس كبيرا و قد يكون متقاربا جدا لكن المشكلة فى الخلاصة .. فى الاستنتاج .. فى التعامل مع النص بفكر حضارى إنسانى دون عقد تفوق كما حدث عند بعض إخوتنا أو أبناء عمومتنا إن جاز التعبير .

و يتبادر إلى ذهنى خاطر أن اليهود ـــ و قد أشار الشاعر إلى الفكرة ذاتها فى واحدة من مقالاته بالكتاب ـــ على مر تاريخهم الطويل لم يعيشوا فترة أفضل من تلك الفترة التى عاشوها فى كنف العرب فى الأندلس ' و عن ذلك قال :

نعم هذه حقيقة لا يستطيعون إنكارها .. و أنا أكرر هذه الحقيقة فى حواراتى معهم .. أنا أقول لهم .. الطلبة الجامعيون و طلبة المدارس الثانوية .. فى النوادى .. فى المؤسسات الثقافية .. و فى اللقاءات الشعبية اتحداهم و أقول لهم أذكروا أن أفران الغاز هى أوروبية الصنع .. أذكروا أن المذابح هى تجربة أوروبية .. أن الأسلاك الشائكة و المعتقلات و اللاسامية و النازية و الفاشية و العنصرية .. كل هذه الموبقات هى غريبة عن تاريخنا نحن كعرب و كمسلمين فى الوقت نفسه .. و لم يعش اليهود فى تاريخهم مرحلة أفضل من مرحلة حياتهم إلى جانب العرب و تحت جناح الدولة العربية الإسلامية .. هذه حقائق لا يستطيعون إنكارها .. واعتقد أننا ملزمون بتعميم هذه الحقائق عالميا.

خاض شاعرنا تجربة السجن فى المعتقلات الإسرائيلية

أكثر من مرة ' و عن كيفية احتماله لتجربة الأسر و بم كان يشعر و فيم كان يفكر حدثني قائلا :

اعتقد أنني رددت على سياسة الزج بي في السجون بمقطع صغير أقول فيه للسجان :

من كوة زنزانتي الصغرى
أبصر أشجارا تبسم لي
و سطوحا يملأها أهلي
و نوافذ تبكي و تصلي
من أجلي ..
من كوة زنزانتي الصغرى
أبصر زنزانتك الكبرى ..

أنا رأيته سجينا في زنزانة كبيرة هي أكبر من زنزانتي بدون شك .. لأنني إنسان واقعي أنا أقطن زنزانة بمساحة متر و نصف إلى مترين أو مترين و نصف و هو يسكن في وطن لكن هذا الوطن تحول إلى زنزانة و هو تحول إلى سجين .. و اعتقد أنني كنت دائما في جميع أحوال اعتقالي .. كنت أكثر حرية من السجان .

و بسؤاله عن الأفكار التي راودته لحظة معرفته بأن الغرفة

التى سجن فيها مرة هى الغرفة التى سجن فيها (ايخمان) من قبل أجاب :

هذه أيضا من سمات السادية العنصرية .. ايخمان هو مجرم نازى اصطاده الإسرائيليون و حاكموه و أعدموه وأحرقوا جثته و قذفوا برماده فى البحر .. و نحن لم نكن فى أى وقت كعرب و كفلسطينين فى خط النازية أو الهتلرية .. فنحن ساميون و أصحاب قضية عادلة .. ونحن ضد العنصرية .. و لا يمكن أن نوضع فى مواقع القتلة والسفاحين و الجلادين .. نحن ضحايا .. ولذلك عملية وضعى فى هذه الغرفة و سخرية السجان حين قال لى هاأنت الآن النزيل الأول على غرفة أيخمان فهم يقارنوننى بأيخمان بكل صلف و صفاقة و وقاحة .. قلت هذا تمثيل بالجثث إذا كان لأيخمان من نظير فهو كل من يمارس العنصرية .. و كل من يعتدى على كرامة الشعوب و أرضها و حقوقها .. أنا الضحية .. أنا ممثل ضحاياكم فى أفران النازية .. و فى هذه المسألة خضت و مازالت أخوض نقاشا حادا حتى مع بعض العرب.. لن أسمح للطغاة و الجلادين أن يظهروا بمظهر محام الضحايا و هم ليسوا كذلك .. نحن من يحق لنا أن نتكلم باسم الضحية

عبر التاريخ .. الضحية يحق لها أن تتكلم باسم الضحية أما الجلاد فهو الجلاد فى كل مكان و زمان .

وفى المعتقل تعرف الشاعر على عدد من المعتقلين العرب من مناطق مختلفة من الهضبة السورية و من قطاع غزة و من الضفة الغربية ' نظر شاعرنا إليهم و انتابته رغبة شديدة فى البكاء و قال ساخرا " إننا نقيم هنا نوعا فريدا من الوحدة العربية " ص٦٧ .

و عن ذلك قال :

كنت أتمنى أن يلتقى العرب من شتى الأقاليم فى إطار وحدة عربية طوعية اختيارية و أنا الآن لا أتكلم بروح الشاعر بل بنظرة المفكر الواقعى إلى أقصى الحدود .. لن تقوم للعرب قائمة بدون الوحدة.. و الوحدة بالنسبة لى ليست مطلبا رومانسيا هى مثل الحياة أو الموت بالنسبة لأمة بكاملها .. إذن من أجل كرامتنا من أجل أطفالنا و مستقبلنا لابد من العودة إلى ما كان .. أنا لا أدعو إلى اختيار شىء جديد .. الدولة العربية الموحدة من المحيط إلى الخليج كانت أمرا واقعا .. و أنا أدعو إلى العودة إلى هذه التجربة التى وضعتنا آنذاك كدولة عظمى لها احترامها و كرامتها و دورها فى التاريخ ..

نحن اليوم على هامش التاريخ و نحن لا نستحق هذا الموقع .. نحن ربع مليار إنسان ٢٥٠ مليون عربى فى وطن رائع وشعب طيب و جميل و مبدع و ذكى .. ليس طبيعيا أن نكون فى قاع السياسة الدولية و فى قاع العالم و أن ينظر إلينا باستعلاء كل عابر تاريخ .. من حقنا أن نستعيد مكانتنا تحت شمس الله أمة واحدة فى دولة واحدة فى وطن واحد بحيث نحتل موقعنا الصحيح و المناسب لحجمنا و تاريخنا .

و فى هذا السياق أضاف قائلا :

أنا قناعتى بعروبة القضية الفلسطينية و رفضى لحالة "سايكس بيكو " حالة التجزئة العربية هى مسألة غير قابلة للتفاوض أو المساومة أو لإعادة النظر .. أنا إنسان وحدوى من طفولتى .. ولدت وحدويا و مازلت وحدويا و سأموت وحدويا .. لأننى على قناعة بأننا أمة واحدة و شعب واحد هذا هو الطبيعى .. أما واقع التشرذم و التشتت و التمزق الذى نكابده الآن فهو الحالة الغير طبيعية .

كان شاعرنا يلقى أبيات شعره بين الجمهور فى كل مكان' فى الشوارع و الساحات و البيوت ' مما كان له عظيم الأثر حتى أن السلطات الإسرائيلية صادرت دواوينه الشعرية أكثر

من مرة ' و بسؤاله عما إذا كان للشعر الآن الأثر العميق ذاته فى وجدان الجماهير كقوة دافعة و محركة لها أجابنى قائلا :

الإجابة هى إيجابية .. و أنا لا أناكف أحدا و لا أتحدى أحدا .. أدعوكم مثلا لو شاهدتم أمسياتى فى القاهرة والإقبال الجماهيرى الرائع على هذه الأمسيات فى القاهرة .. أمسياتى الشعرية مع الجاليات العربية فى أمريكا و أوروبا وأماكن أخرى من العالم لاكتشفتم ما اكتشفت من أن الشعر لايزال ديوان العرب .. مازال الفن القومى العربى الأول .. هو فننا الأصيل .. و جمهور الشعر عندنا أكبر من جمهور الشعر فى بريطانيا و فرنسا أو فى أمريكا .. فهذه العلاقة الحميمة بين الشعر و الإنسان العربى مازالت تتصدر الحركة الإبداعية العربية .. لكن إذا نشأت فنون أخرى يقولون الرواية مثلا السينما .. التليفزيون .. القصة القصيرة .. و استطاعت أن تأخذ موقع القصيدة فلن يكون من حق أى أحد أن يتصدى لتطور تاريخى طبيعى .. إنما إلى يومنا هذا مازال الشعر هو أداة التعبير العربية الأكثر فعالة و الأكثر عمقا و الأكثر تأثيرا .

"لا أعلم إذا كان الشهر الأخير ثلاثين يوما أو واحدا و

ثلاثين يومـا .. لكننى أعلم جيـدا أننى راغب فى الحـيـاة .. راغب فيها حتى اليوم الثانى و الثلاثين من الشهر .. " ص٧٧

شاعرنا محب للحياة بلا هوادة و عن ذلك قال لى :

اعتقد أن الذين لا يحبون الحياة فى الحقيقة لا يحبون الله و لا يحبون أنفسهم .. الحياة هى هبة الله للبشر و لذلك علينا أن نحافظ عليها قدر المستطاع و أن نتمتع بها و أن نجعلها جميلة قدر المستطاع لكن دون أنانية .. من أجل أن نشارك الأخرين بسعادتنا و فرحتنا و أحلامنا .. و أن نترك للأجيال القادمة أيضا فرصة للحياة الجميلة و السعيدة و الحرة والكريمة .. من هنا من حبى للحياة بمعايير واضحة اعتقد أن من يحب الحـيـاة لا يسـتطيع إلا أن يكون مناضـلاً .. لا يستطيع إلا أن يتصدى لقوى الشر و الظلام و لا يستطيع إلا أن يكون على استعداد للتضحية بحياته فى سبيل الحياة الأكبر حياة الأمة و حياة الإنسانية جمعاء .

و اختتمت حوارى مع شاعر العروبة سميح القاسم بسؤاله عن الكيفية التى يريد للإنسان العربى أن يحيا بها فعاجلنى قائلاً :

الحـرية أولاً .. الحـرية هى أثمن شىء فى تراثنا .. فى

الدين .. فى الدنيا .. الحرية هى القيمة العليا .. حرية الفرد .. حرية التفكير .. حرية الإجتهاد .. إذن الحرية هى القيمة الأسمى .. الرفاه أيضا .. من حق الشعوب ألا تكافح نهارها من أجل رغيف الخبز .. من أجل رغيف العيش .و أنا أقول هذا الكلام بوجعٍ حقيقى .. من حقنا أن نضحك أن نسعد .. أن يذهب أطفالنا إلى المدارس دون أن يتعرضوا للطائرات المغيرة و الألغام و المخبرين و الطغاة و سارقى حريات و قوت وكرامة الشعوب ..

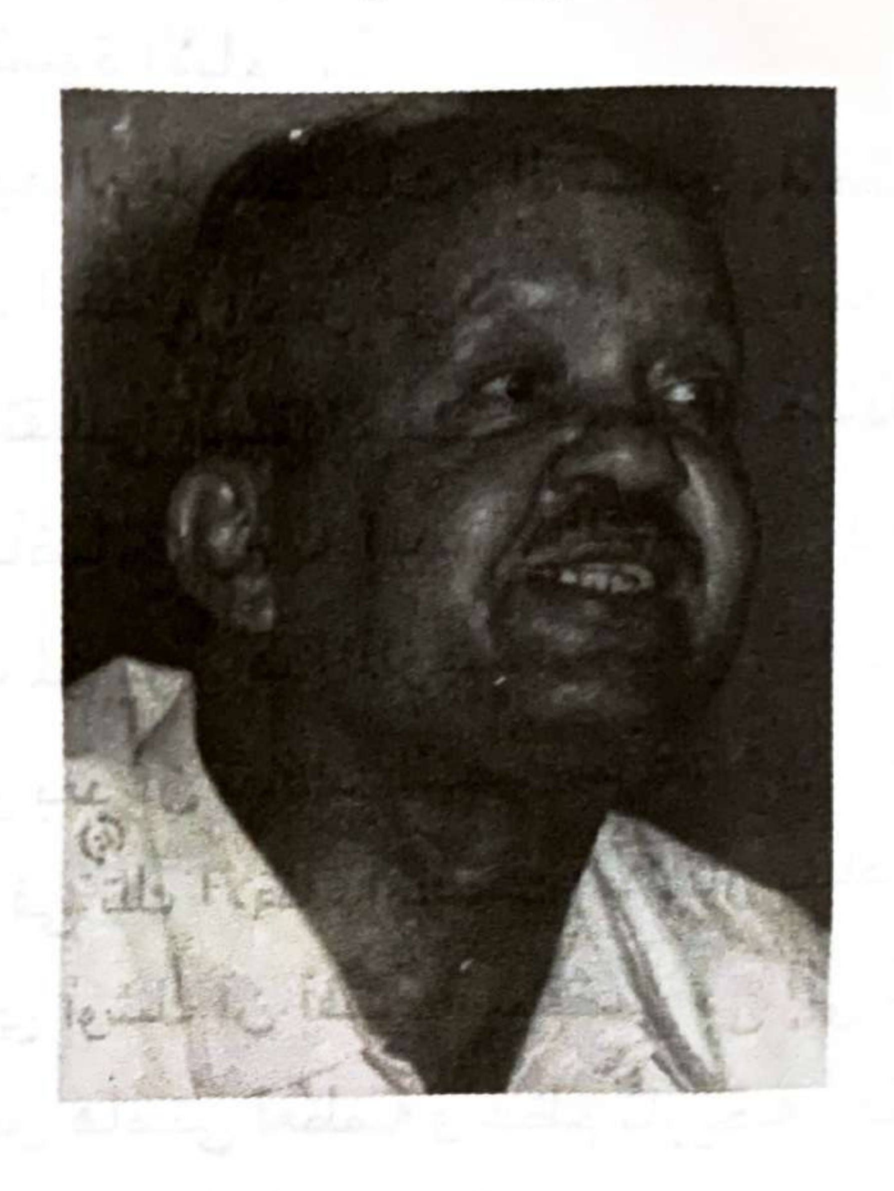
و أعلق هنا بدورى : من حقنا أن نحيا سيدى ..

و رددها شاعرنا مؤكداً :

من حقنا أن نحيا ..

د. عبد العظيم أنيس

ذكريات من حياته



"و اليوم و أنا اقترب من الثمانين لست نادما على أى شىء

فقد كان همى طوال حياتى الدفاع عن الفقراء و المظلومين و عن استقلال مصر' و عندما أتأمل هذا الشريط الطويل من حياتى أجدنى راضيا عما قمت به و ضحيت من أجله مهما كانت قسوة الأيام .. "

التقيت بعالم الرياضيات و السياسى المصرى الكبير الدكتور عبد العظيم أنيس فى بيته بإحدى ضواحى مصر الجديدة ' استقبلنى استقبالا دافئا بابتسامة صادقة ارتسمت على شفتيه فأضاءت وجهه المصرى القسمات ' و تساءلت فى نفسى كيف لمن يرى هذا الوجه أن يدفع به فى السجون والمعتقلات ! و بعد أن تبادلنا التحية شرعت فى تجهيز معدات التسجيل ' و فى تلك الأثناء ازدحمت الأفكار بخاطرى ' فباب الذكريات الذى أوشك أن أفتحه سيفضى بى إلى ذاكرة وطن بأكمله أخفض هامتى لعظمه و عظم تاريخه ' فكم احتمل وطننا ' و كم احتمل أبناؤه الصادقون المثابرون فى سبيل عشقه ' إنه تاريخ لم أعشه ' لكننى حتما تأثرت و تأثر جيلى بتوابعه ' أخذ نفسا عميقا استعدادا لبدء الحديث الذى اتخذ

من سيرة المناضل المصرى الدكتور عبد العظيم أنيس (ذكريات من حياتى) نقاطا للحوار و المناقشة ' واختار أن أبدأ بقصة كتابة هذه الذكريات ' و عن تلك القصة قال :

لم يكن عندى استعداد أن اكتب كتابا بهذا النوع .. وعندما طلب منى كتابة هذا الكتاب فى ظروف كانت صعبة بالنسبة لى و هى ظروف وفاة شقيقتى فى نفس الفترة وبداية مرضى قلت أنا مستعد أن يتم جمع مقالات نشرتها فى فترات مختلفة تتعلق بحياتى و نشرها مع مقدمة صغيرة .. ولذلك فإن الكتاب ليس مكتوبا من الأول إلى الأخر عن حياتى .. لأن فى حياتى أشياء كثيرة لم تذكر فى هذا الكتاب .. الأشياء مثلا المتعلقة بزواجى و بناتى .. كل هذه الأمور ليست موجودة بالكتاب .. لكننى اهتممت أن أبرز الجوانب الخاصة بالسياسة فى حياتى و أيضا الجوانب الخاصة بالعلم ..أنا بدأت معيدا فى جامعة الأسكندرية بعد أن تخرجت فى جامعة القاهرة .. و حصلت على الدكتوراه من انجلترا .. ثم عدت إلى كلية العلوم جامعة القاهرة .. فهناك مراحل هامة جدا فى حياتى مذكورة بشكل واضح فى الكتاب و أنا اكتفيت بها .. ولذلك أسميته (ذكريات من حياتى) .

فى الثانية عشرة من عمره قضى الدكتور عبد العظيم أنيس ليلة مع ثلاثين آخرين فى زنزانة بقسم الوايلى لعرضه على النيابة فى الصباح ' و ذلك لاشتراكه فى مظاهرة بمدرسة فؤاد الأول فى حى العباسية بالقاهرة ' و عن تلك المواجهة المبكرة مع السلطة حدثنى قائلا :

حصل ذلك فى فترة مبكرة جدا من حياتى .. فى سنة أولى ثانوى بمدرسة فؤاد الأول الثانوية وهى الآن اسمها مدرسة الحسينية الثانوية .. و كنت لاأزل ألبس بنطلونا قصيرا ..يعنى فى الحقيقة أنا اشتركت فى المظاهرة لأنه كان لى أخ أكبر منى هو المرحوم الدكتور محمد أنيس و كان يسبقنى بسنة .. و كان مشهورا بأنه طفل شقى و أنا كنت مشهورا بأنى طفل هادىء .. و لما اشتركنا فى المظاهرة .. كان يقوم بعد اصطدامنا بالبوليس بإلقاء الحجارة و الطوب على البوليس و أنا كنت أقوم بإمداده بالخطوط الأمامية للطوب و ليس أكثر من ذلك .. و عندما تعبت وجدت أن الكتب و الكراريس التى معى عقبة فى سبيل ما كنت أقوم به .. فتركتهم على جانب و بعد أن انتهينا لم أجدهم .. طبعا الفراشون بدأوا يجمعون الكراريس و الحاجات الموجودة

كدلائل على الاشتراك فى المظاهرة .. و فى الليل جاء البوليس
و سأل عنى و عندما طلعت استغربوا و قالوا "ده" لم يصدقوا
لأنه كان لى أخ فى كلية الهندسة هو أخى حسن رحمه الله
فاعتقدوا انه المطلوب .. و لم يقولوا لأبى و أمى أننى مطلوب
لاشتراكى فى المظاهرة و إنما قالوا أن هناك أولادا قبض
عليهم و النيابة تحقق معهم و استشهدوا بابنكم أنهم كانوا
بعيدا عن المظاهرة .. و يريدون أخذ أقوالى فقط.و أمى قالت
لى " أوعى تعترف على حد ' كل العيال كانوا بعاد عن
الموضوع " فوالدى لبس و جاء معى بهذا الاعتقاد .. وعندما
وصلنا إلى قسم الوايلى وجدنا الموقف مختلفا كان هناك
ضباط أجانب بريطانيون و صول بشنب كبير قال" دخلوهم
على الزنزانة ".. فدخلنا الزنزانة و انهار والدى و استنكر أن
يحدث لى هذا .. فالمأمور فهم والدى الموضوع .. و جاء أولياء
أمور أخرون .. و كان حزب الوفد فى هذا الوقت قويا .. فجاء
محامو حزب الوفد و قالوا إننا سنبيت بالقسم .. و لكن فى
الساعة الحادية عشرة طلعونا من الزنزانة .. لأن الزنزانة بها
لصوص و وضعونا فى حجرة .. و كان هناك ناس مضروبة
بالرش فى أرجلهم فوضعوا لهم " كنباً " كى يناموا عليه .. ..

و أخذونا فى الصباح على المحافظة .. النيابة كانت هناك وحققوا معنا حتى الظهر .. ثم عرضنا على رئيس النيابة الذى قال "وقفوهم بالطول" فأنا جاء دورى فى الأخر .. فمال علىّ وكيل النيابة و قال بصوت خفيض لكنى سمعته " دول حبس ٤ أيام و الواد ده إفراج ".. و كانت هذه أولى تجاربى و قد كانت كل الهتافات ضد الإنجليز لأن كان هناك تصريح من صمويل هور أنهم لن يخرجوا من مصر .. فكانت الهتافات " يسقط هور ابن التور" و رغم أنى بكيت أول ما رأيت أمى إلا أنى تظاهرت بالشجاعة ثانى يوم عندما ذهبت للمدرسة .. و استقبلت استقبال الأبطال من زملائى .

و أعلق بدورى أن هذه التجربة كانت بالأحرى أن تترك أثرا فى نفسه و هو بعد صغير يجعله يبتعد عن مجال العمل السياسى بعد ذلك ' فعاجلنى قائلا :

بالعكس لم يجعلنى ذلك ابتعد عن السياسة .. و بعد تلك الحادثة فى ثانوى لم يكن هناك مجالا للعمل السياسى .. لكن فى الجامعة عملت خاصة فى السنوات الأخيرة بالسياسة أكثر.. و اشتركت فى حاجات كثيرة حتى مظاهرات ١٩٤٦ واضرابات الطلبة و العمال ضد الإنجليز التى قتل فيها عدد

من المتظاهرين فى ميدان التحرير .. و أنا كنت فى الأسكندرية فى هذه الفترة لكن كان لنا نشاط موازى أثار السلطات علينا و قد كنت معيدا فى تلك الفترة .. و هناك حاجة مهمة كان ذلك بمثابة تقليد فى العائلة .. كان أخى الكبير إبراهيم رحمه الله وفديا و كان شاعرا و كان يلقى قصائده فى بيت الأمة أمام سعد زغلول و من بعده مصطفى النحاس .. و كنت اسمعه أنا و إخوتى .. و العائلة كانت وفدية.

اهتم الدكتور عبد العظيم أنيس منذ وقت مبكر بالعمل العام و الالتزام بمساعدة الأخرين ' و عن ذلك قال :

أنا شرحت فى الكتاب إلى حد ما أن عائلتى مرت بظروف اقتصادية صعبة لأن الأزمة الاقتصادية التى حدثت من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٢ تقريبا أدت إلى إفلاس والدى .. و والدى كان مقاولا و كان يعتمد على صلته بوزارة الأوقاف .. كان يقوم ببناء مساجد فى أماكن مختلفة لوزارة الأوقاف وطبعا كانت الوزارة تعطيه تكاليف البناء .. و جاءت وزارة صدقى و أوقفت كل المشروعات .. و والدى كان عنده ديون للناس .. كان يعتمد على أنه يأخذ من وزارة الأوقاف و يسدد

فمر بظروف صعبة .. هذا من جانب .. أما الجانب الأخر فقد كان أخى الكبير إبراهيم الذى كنا نعتمد عليه إلى حد كبير سافر فى بعثة إلى إنجلترا فمصدر من مصادر الدخل ضاع .. صحيح أنه كان يرسل نقودا من إنجلترا بين الحين والأخر لكن ليس مثلما كان موجودا .. الأمر الثالث أنا كان لى أخت كبيرة اسمها عائشة تعمل مدرسة ابتدائى و كانت تقريبا تكاد تكون مصدر الدخل الوحيد و قد كنا ثمانية .. فكان دخل الأسرة قليلا بالنسبة إلى تكاليفها .. فمررنا بظروف صعبة فى تسديد أقساط مصروفات المدارس و أشياء من هذا القبيل .. بالنسبة إلىّ أنا كنت أحصل على مجانية التفوق .. لكن إخوتى الكبار كان هناك أقساط مصروفات كلية الهندسة مثلا .. هذه الظروف الصعبة جعلتنى أشعر بمشكلة الناس الفقراء .. و أنه ينبغى أن نساعدهم .. وقد رأيت ناسا فقراء تفوقوا و أصبحوا " كويسين" و كنت دائم القول إنه حرام أن مثل هؤلاء الناس لا تتاح لهم فرصة التعلم فكنت أشعر بالمسئولية العامة أو الشعور العام و كان قويا جدا عندى .. و أنا ذكرت أن فى أيام الحرب العالمية الثانية عندما أنشئت مدرسة الوقاية من الغارات الجوية اشتركت

وكنت " أقفل "الأحياء و أقول " طفوا النور " و أشياء من هذا النوع .. و بعد ذلك و انا فى الجامعة أنشئت مبرة الأميرة فادية للأطفال بالدمرداش .. فجاءنى أستاذ سيد زكى الله يرحمه و كان مدرس ثانوى ويحبنى جدا .. و كانت له صلة بالمبرة و طلب منى أن أساعد فى المبرة فقلت " بكل ممنونية أعمل إيه ؟ " قال تعلم الأولاد القراءة والكتابة وتمسك المسائل المتعلقة بالنظام و تعمل أبحاثا عن عائلات الأولاد وظروفهم المالية .. و بالفعل كنت أعمل كل سنة فى الصيف فى هذا الموضوع .. كما قمت بإدارة المصروفات بعد ذلك ..

انضم الدكتور عبد العظيم أنيس إلى إحدى تنظيمات اليسار فى فترة عمله معيدا بكلية العلوم بالأسكندرية ' و بدأ فى قراءة الكتب الماركسية مثل (ما هى الاشتراكية) لإميل بيرنز و (رأس المال) لماركس و غيرها ' و أثناء قراءتى لما كتبه عن تلك الفترة استوقفتنى كلماته :

«لقد التهمت كل هذه الكتب و تصورت أننى فهمت و إن كنت أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى و الثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب " ص٣٢ . و عن ذلك حدثنى قائلا :

قرأت كتبا ماركسية عديدة مثل (الأيدولوجيا الألمانية) و(ضد دهرونج) و تصورت أننى فهمتها لكن رأيى أننى كنت أقنع نفسى أنى فهمت .. و لكن كى أفهم هذه الكتب كان لابد لى من أن أفهم فى أى ظروف هذه الكتب كتبت .. و ما نوع المشاكل التى كانت موجودة بين المؤلفين و بعض .. لأن كل هذه الكتب خلافية نقاشية و بدون فهم أصل الموضوع وسياقه من الصعب جدا إدراكه .. بالإضافة إلى كتاب مثل كتاب إنجلز(جدل الطبيعة) هذا الكتاب شد اهتمامى لأنه كان به كلام عن الرياضيات و الفيزياء و كنت اعتبر هذا الكتاب قمة القمم و من واحد ليس متخصصا فى الطبيعة أو الرياضة ويتحدث بهذا المستوى .. لكن طبعا لما الواحد كبر وبدأ يقرأ أكثر و يفهم أكثر .. وجدت أن كثيرا من الأشياء التى كتبها (إنجلز) فات أوانها و ليست دقيقة من الناحية العلمية .

و أتساءل إذا ما كانت هناك فى تلك الفترة صعوبة فى تطبيق النظريات و الرؤى التى حملتها هذه الكتب فى مصر فأجابنى :

طبعا .. و لم يكن هناك أحد يطالب بتطبيقها فى مصر فى هذا الوقت أبدا .. كانت المشكلة الأساسية عندنا هى أولا

الاستقلال الوطنى بمعنى الخروج من دائرة النفوذ الإنجليزى و خروج القوات البريطانية من مصر .. و الأمر الثانى العدل الاجتماعى بمعنى وجود بعض الإنصاف للطبقات الفقيرة ونوع من التوازن فى الدخل بين الطبقات و لم يطالب أحد بإلغاء الطبقات الغنية و لا الاشتراكية و لا شىء من هذا النوع لأن الاشتراكية تحتاج مستوى من الإنتاج لم يكن متوفرا على الإطلاق .. لكن المطالب الضرورية و المباشرة كانت الاستقلال الوطنى و قضية الديمقراطية السياسية وقضية العدل الاجتماعى .. بمعنى رعاية الفقراء و مجانية التعليم التى تحققت فى عهد عبد الناصر .

من المفارقة .. قضى الدكتور عبد العظيم أنيس فى معتقلات الملك فاروق سنتين إلا ثلاثة أشهر و فى معتقلات الرئيس الراحل جمال عبد الناصر حوالى ست سنوات ' و قد علق على ذلك قائلا :

أنا قضيت سبع سنين من حياتى فى المعتقلات .. و طبعا معتقلات الملك فاروق كانت أحسن ألف مرة من معتقلات عبد الناصر .. و لم يكن فيها إطلاقا أى اتجاة للتعذيب .. أو أى شىء من هذا النوع على عكس طبعا المرحلة الناصرية .. لكن

انا أعطى حكما بأن المرحلة الناصرية بشكل عام أفضل بكثير من مرحلة الملك فاروق .. و هذا الحكم ليس شخصيا لو كنت أحكم على الأمور من الناحية الشخصية كنت طبعا أقول مرحلة الملك فاروق كانت أفضل بكثير .. لكن أنا أعطى حكما على ما حدث للشعب المصرى بشكل عام .. الذى حدث أن أحواله المعيشية تحسنت كثيرا فى المرحلة الناصرية إضافة إلى مجانية التعليم و رعاية الفقراء .. لكن العقبة الرئيسية فى المرحلة الناصرية كانت قضية الديمقراطية .. كان عبد الناصر يحكم بوصاية .. ليس لأحد الحق فى أن يقول أى كلمة تخالفه .. و كان ذلك محل الخلاف الأساسى الموجود .. لقد ارتكبت جرائم فى المرحلة الناصرية مثل إعدام خميس والبقرى فى كفر الدوار بعد محاكمة غير عادلة .. و أمثلة أخرى .. و لكن بشكل عام لغاية على الأقل عام ١٩٦٧ كانت مرحلة تقدم اجتماعى ..كانت مرحلة جيدة و باستثناء طبعاً الأخطاء الشنيعة التى ارتكبت فى مسألة الوحدة مع سوريا .

سافر الدكتور عبد العظيم أنيس إلى لندن عام ١٩٥٠ للحصول على درجة الدكتوراه ' و قد كتب فى ذكرياته أن تلك الفترة كانت نقطة تحول هامة فى حياته العلمية و تكوينه

الثقافى ' و عن هذه المرحلة من حياته قال :

سفرى إلى إنجلترا و التحاقى بالكلية الإمبراطورية بجامعة لندن كان نقطة تحول فى حياتى .. أولا تعلمت أول مرة فى حياتى أن استمع إلى الموسيقى الكلاسيكية وأعشقها .. و كنت اسكن فى منطقة قريبة من الكلية و فيها (ألبرت هول) التى كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الرخيصة كل أسبوع .. و كانت بشلنين و ستة بنسات .. فعشقى للموسيقى الكلاسيكية تكون فى هذه الفترة و لا يعنى ذلك أنى تخليت عن الموسيقى الشرقية .. أنا أعشق أم كلثوم و عبد الوهاب .. و لكن مازالت أذنى ترتاح لسماع الموسيقى الكلاسيكية .. أيضا تمكنت من الإطلاع بشكل موسع على الكتب الإنجليزية فى الأدب و الفن .. إضافة إلى رسالتى فى الدكتوراه فى الرياضيات .. و كلها نقاط تحول .. و طبعا فى إنجلترا ديمقراطية ليست معهودة فى مصر على الإطلاق .. كانت هناك أراء مختلفة .. كنت أقرأ جرائد تحمل وجهات نظر مختلفة .. فكانت بذلك فترة خصبة جدا فى حياتى .. وقد فصلت من الجامعة عام ١٩٥٤ كنا مجموعة.." كذا وأربعين واحدا " بسبب اختلافنا مع موضوع محمد نجيب ومطالبتنا

بعودة الجيش إلى ثكناته .. فعينت مدرس بجامعة لندن .. فأنا قضيت ست سنوات من حياتى فى إنجلترا .

فصل الدكتور عبد العظيم أنيس من الجامعة عام ١٩٥٤ ' و اعتقل عام ١٩٥٩ بالرغم من عودته إلى مصر بعد العدوان الثلاثى عليها و مساندته لقضية التأميم ' و استقالته من عمله فى لندن حتى يصبح حرا فى مساندة قضية وطنه . عثرات كثيرة على الطريق و لكنه كما قال لى لم ييأس و كان ذلك ردا على سؤالى إياه عن كيفية صموده رغم العقبات ' و قد أضاف قائلا:

كما قلت فى المقدمة أنا لست نادما على أى شىء فى حياتى و لو بدأت حياتى من جديد كنت سأتجه للعمل السياسى أيضا .. لأننى لا أنظر للموضوع من الناحية الشخصية .. أنا أنظر إليه من الناحية العامة .. و أنا شعرت أنى أديت دورا .. و أن لى مكانة عند الناس بسبب مواقفى .. يعنى من قريب قالت أستاذة فى الجامعة "مين غير عبد العظيم أنيس يفصل من الجامعة و لما تتأمم قناة السويس يستقيل من جامعة لندن علشان يرجع تانى و هو ميعرفش رايح فين" فقلت لها أنا شعرت أن هذا واجبى .. أنا خطبت

فى كل الأماكن فى إنجلترا مدافعا عن تأميم القناة سنة ١٩٥٦ و لم يكن ممكنا أن أقوم بذلك و أنا لاأزال مدرسا هناك فى الجامعة .

عمل الدكتور عبد العظيم أنيس فى الصحافة بين عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ محررا للشئون العربية بجريدة المساء و عن تلك الفترة قال :

السبب فى اتجاهى للعمل الصحفى أنى عندما عدت من لندن لم يكن لدى عمل لأنى مفصول من الجامعة .. و رغم محاولات مدير جامعة أسيوط أنذاك تعيينى أستاذا مساعدا فى الرياضة البحتة إلا أن كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم رفض رفضا باتا .. فطلب منى خالد محيى الدين أن أعمل معه فى جريدة المساء .. و أن أكون مسئولا عن الشئون العربية .. و كانت فترة خصبة من حياتى أيضا لأنها عرفتنى بالأحزاب السياسية العربية فى الأردن و سوريا و لبنان .. وهؤلاء لا يعرفوننى كرياضى على الإطلاق بل كسياسى وصحفى .. و عملت لمدة عامين حتى اعتقالى عام ١٩٥٩ بسبب موقفى من قضية الديمقراطية فى موضوع سوريا .. كنا نطالب بعدم إلغاء الأحزاب السياسية فى سوريا و عدم

نقل التجربة المصرية إلى سوريا كما هى لأن لهم ظروفهم الخاصة المختلفة عنا .. و طبعا لم يسمعوا الكلام و اعتبروا هذا معاداة لهم و اعتقلونا .

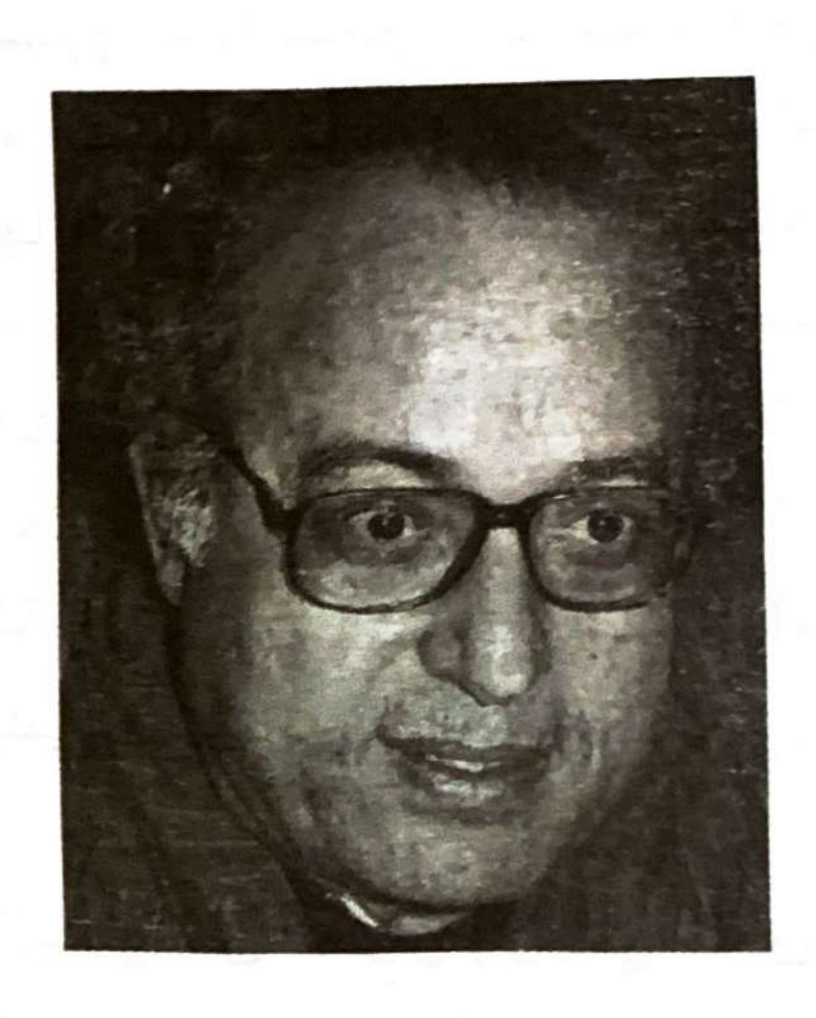
و للدكتور عبد العظيم أنيس رؤية للمثقف حدثنى عنها قائلا :

المثقف فى رأيى هو الشخص الذى لا يسير بجانب الحائط كما نقول .. هو الذى يرى مصالح بلده و يدافع عنها حتى إذا تعرض للخطر فيها .. و أستاذ الجامعة ليس بالضرورة هو المثقف لأنه قد يكون مشغولا بالكيمياء والطبيعة مثلا و لا يعرف أى شىء غير هذا .. لا يعرف حتى أى شىء خارج الطبيعة و الكيمياء .

انتهى اللقاء مع عالم الرياضيات و السياسى المصرى الكبير الدكتور عبد العظيم أنيس و لا يسعنى هنا إلا أن أخفض هامتى تحية و تقديرا لكفاحه الطويل ' و عشقه لمصر الذى لم يحد عنه يوما .

د. عبد الوهاب المسيرى

عن البذور والجذور والثمر



"لا يمكن أن أمارس شيئاً و لا أتأمل فيه .. فى أقصى لحظات الحزن .. و فى أقصى لحظات الفرح أتأمل دائماً .. "

فى الطريق إلى منزل المفكر المصرى الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيرى ـــ صاحب موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية ـــ بمصر الجديدة .. شرعت أقلب دفتر أوراقى .. انقل بصرى بين السطور المختلفة التى ازدحمت بملاحظاتى و أسئلتى .. فرحلته الفكرية أدهشتنى و أنهكتنى .. لتفاصيلها الدقيقة .. و لثراء أفكارها الملهمة. هى فحص شامل لذاته المفكرة .. هى رحلة داخل عقل مفكر .. كيف يحلل الأحداث .. كيف يفكر فى الأشياء .. و كيف يدرك ذاته و العالم من حوله . و فى بيته ـــ الذى يحمل تفاصيل كثيرة أيضاً إضافة إلى حديقة صغيرة تحملك إلى أجواء أندلسية ـــ استقبلنى بترحاب جميل .. و بعد تعارف قصير بدأ حديثنا ..

كانت البداية من العنوان (رحلتى الفكرية فى البذور والجذور و الثمر .. سيرة غير ذاتية غير موضوعية) و عن السبب وراء اختياره لهذا العنوان قال :

أولا هى رحلتى الفكرية و ليست رحلتى الفردية بمعنى

أننى أقدم سيرة حياتى كمفكر .. و ما حدث فى حياتى الشخصية لا يذكر إلا إذا كان له أثر فى حياتى الفكرية .. بمعنى مثلاً إن كنت أحب اللون الأخضر و أفضله عن اللون الأزرق فلم أذكر هذه لأنها لم تؤثر فى حياتى الفكرية .. لم أذكرعلاقتى مثلاً بخالتى فى دمنهور بالرغم من أنى كنت أحبها كثيراً و مازلت ولكنها لم تدخل فى حياتى الفكرية .. بينما مثلاً علاقتى بأمى كان لها أثر كبير على تكوين شخصيتى الفكرية و علاقاتى بأبى نفس الشىء .. بينما علاقتى بإخوتى لم تؤثر فى حياتى الفكرية و هكذا .. فهى رحلتى الفكرية .. و لأنها تتناول حياتى كمفكر وليس كفرد فهى غير ذاتية بمعنى أنه دائما يقال سيرة ذاتية يقول الإنسان فيها كل ما عنده .. أنا لم أقل كل ما عندى لأن حياتى الخاصة من شأنى أنا الخاص و هى مسألة لها حرمة عندى .. و قد ناديت الكتاب لأن كثير من الكتاب يحجمون عن كتابة سيرة حياتهم الفكرية لأن المطلوب منهم أن يكتبوا عن حياتهم الشخصية .. فقد طورت هذا النوع الأدبى السيرة غير الذاتية لأشجع المفكرين الأخرين على كتابة سيرهم غير الذاتية أى الفكرية حتى يستفيد النشىء منها و تستفيد

الأجيال القادمة لأنى أجد أن مشاكل الفكر العربى والإسلامى الحديث هى أن كل مفكر يبدأ من نقطة الصفر ولابد أن نتجاوز هذا بحيث إنه يحدث نوع من التراكم المعرفى الذى يؤدى فى نهاية الامر إلى طرح نظريات و رؤى جديدة .. أما البذور و الجذور و الثمر فهى أنه عادة فى العملية التعليمية فى العالم العربى يعطى الأستاذ الطلبة ثمرة فكره بمعنى أن يقول لهم مثلاً إن الأنواع الأدبية تنقسم إلى كذا وكذا .. هذا ثمرة الفكر .. أما أنا أردت أن أبين كيفية الوصول لهذا الفكر .. و اعتقد أن هذا أهم من مجرد أن نعطيهم الثمرة .. لأن الثمرة تحولهم إلى متلقين أما الكيفية التى توصلت بها تشحذ هممهم و تزيد من الإبداع و من هنا فأنا لم أتحدث عن الثمر و إنما تحدثت عن الجذور و البذور والثمر .. عملية نشأة الفكر و تشكل الأفكار .

كتب الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى سيرته الفكرية أنه فهم الكثير من أحداث حياته الذاتية من خلال نفس الموضوعات الأساسية و المقولات التحليلية التى استخدمها فى دراساته الموضوعية و ليس العكس ' و بسؤاله عن الذى أراده بذلك أجاب قائلاً :

مثلاً فى موقفى من الصهيونية أجد أن لى رؤية مغايرة للكثيرين .. رؤية إلى حد كبير متفائلة لأنى أتوقع أن يتم القضاء على الجيب الصهيونى فى نهاية الأمر .. فتأملت فى مصدر ذلك أو ما الذى جعلنى أرفض فكر الهزيمة بهذا الشكل فوجدت أن عندى ثقة فى ذاتى و أن هذه الثقة هى التى حملتنى عبر حياتى .. و أن الثقة فى ذاتى اكتسبتها من الكثير من أساتذتى فى دمنهور ثم فى الأسكندرية ثم فى الولايات المتحدة فقد كانوا يشجعوننى دائما و يتبنوننى .. ويقبلون منى الأفكار التى قد تكون جديدة بعض الشىء وأحاول الآن أن أفعل نفس الشىء مع طالباتى حينما ألاحظ أن هناك طالبة نابهة أحاول دائماً أن أخبرها أنها نابهة و أن عندها الجديد لتقوله ..حتى تزداد ثقة بنفسها .. فإذا ازدادت ثقة فإنها تزداد إبداعاً . و من الأمور الأخرى التى لها أهمية فى تكوينى الفكرى كونى نشأت فى مدينة صغيرة هى دمنهور .. كانت تسود فيها علاقات اجتماعية تقليدية اسميها تراحمية .. بمعنى مدينة صغيرة الجميع يعرف الجميع .. كان لايزال يوجد نوع من الإقتصاد التبادلى .. الفلاح يأتى و معه بيض و يأتى للحلاق فالحلاق يحلق له نظير ثلاث بيضات مثلاً ..

حتى أذكر و نحن أطفال كنا حينما نحلق كان دائماً النكتة السائدة " الفرخة باضت و اللا خبزتم " هذا صدى للإقتصاد التبادلى إنه من سنوات كنا نذهب للحلاق و معنا البيض الذى باضته الفرخة أو رغيف أو رغيفين من الخبز نعطيهم للحلاق .. إلى جانب ذلك كان العنصر الإنسانى لايزال جزءاً من أجزاء الاقتصاد.. و أذكر دائماً الواقعة التالية .. كان والدى من كبار التجار و يبدو أنه من أوائل التجار الذين أدخلوا فكرة الأوكازيون .. مدينة دمنهور لم تكن سعيدة بهذا أبداً .. لأن فى نهاية الأمر سيصعد من المنافسة و تساءلوا " طب والتجار الصغيرين يعملوا إية ؟! " و هو سؤال غير اقتصادى بالمرة هو سؤال إنسانى أنه عندما يقوم الحاج المسيرى بعمل أوكازيون معنى ذلك أنه سيكتسح السوق .. معنى ذلك إنه سيدمر صغار التجار و قد وجدوا أن ليس في ذلك عدلاً .. ولكن فكرة العدل هذه لا علاقة لها بالمنظومة الداروينية منظومة البقاء للأقوى و الأصلح الحديثة .. فحينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية انتقلت من مجتمع تراحمى تقليدى إلى مجتمع تعاقدى غربى حديث .. الإسكندرية فى الخمسينيات من القرن الماضى كانت مدينة أوربية .. فى

الواقع كنت أقطن فى حى الإبراهيمية .. كان الباعة الجائلون ينادون على أطعمتهم باليونانية .. و إن كنت لا تجيد الإنجليزية أو الفرنسية أو اليونانية كنت لا يمكن أن تتفاهم مع بعض الناس .. يعنى يعيشون فى مصر و لا يتحدثون إلا اليونانية .. و عندما دخلت كلية الآداب جامعة الإسكندرية عدد كبير من الطلبة كانوا من اليونانيين أو الإيطاليين .. ثم انتقلت إلى نيويورك و هو مجتمع أكثر تعاقدية و أكثر حداثة .. لكن بسبب تجربتى فى دمنهور كنت دائماً أطل على المجتمع الحديث من منظور المجتمع التقليدى .. و أرى بعض القيم الإيجابية فى المجتمع التقليدى التى لا توجد فى المجتمع الحديث .. و قد ساعدنى هذا على فهم المجتمع الحديث لأن تأتى من مجتمع و أنت من خارجه يمكن أن تلاحظه و ترصده بطريقة نقدية أكثر عمقاً و هكذا تتفاعل تنشئتى الخاصة مع رصدى للمجتمعات الغربية و رصدى لأنواع السلوك المختلفة التى تنشأ فى مجتمعنا العربى و الإسلامى .

يركز الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى كتابه دائماً على مغزى الواقعة التى حدثت له أثناء سرده للوقائع المختلفة ' وبسؤاله عما إذا كان قد أدرك مغزاها عند حدوثها أم أنه

يدرك مغزاها و دلالتها فى مراحل لاحقة أجاب :

حدث لى شىء ما فى الطفولة لا أدرى ما هو تماماً .. لأنى أتذكر أنى فى سن مبكر ربما الثامنة أو التاسعة من عمرى استيقظت و اكتشفت مقولة أننا نعيش فى الزمن .. وهذا الأكتشاف كان رهيباً بالنسبة إلىّ .. إن كل دقيقة هى حياتى .. و أذكر واقعة طريفة إنى قررت أن أنقذ حياتى فكيف أفعل ذلك بتوفير وقتى .. و حتى الآن أقول لأصدقائى أنى أعامل وقتى كما يعامل اليهودى ذهبه رغم أنها نكتة عنصرية لكن حتى أوضح الأمر .. أتذكر أنى استيقظت فى الصباح و ناديت على الخادمة لتأتى لى " بالشبشب " حتى لا أضيع وقتى و انتهى الأمر أنى أخذت " علقة "من السيدة والدتى .. لأننا فى مجتمع تراحمى و الخدم جزء من الأسرة .. و مادمت قادراً على أن أحضر لنفسى " الشبشب "إذن أحضر لنفسى الشبشب .. طبعاً والدتى لم تدرك مأساة الزمن التى أعيش فيها .. لكن منذ تلك اللحظة و أنا لا يمكن أن أمارس شيئاً و لا أتامل فيه .. فى أقصى لحظات الحزن .. و فى أقصى لحظات الفرح أتأمل دائما .. أتأمل ما أنا فيه من حزن و فرح .. و أرى أن هذا يزيد و يقلل فى ذات الوقت

من الفـرح و يزيد و يقلل فى ذات الوقت من الحـزن .. مـا لايمكننى أن أفسـره يضـايقنى لأقـصى حـد .. و هذا من طفـولتى أحـاول دائمـاً أن أفسـر مـا حـولى حـتى يمكننى استيعابه. أعلق بدورى هنا أنه قد اسمى ذلك " داء التأمل " فعاجلنى ضاحكًا : هو داء إلى حد ما .. و إلى حد ما مزعج .. يزعج الكثـيـرن من من هـم حـولى .. لدرجـة أن إحـدى صديقاتى قالت إنها تخشى الآن أن تفتح فمها لأن سيخضع هذا للتحليل مباشرة و عذرتها فى ذلك .. يعنى قالت " إن الواحد بيبقى جالس مع الدكتور المسيرى خايف يقول أى حاجة لأنه سيكتشف إن لها معنى غير المقصود تماماً" وهكذا..

أعود لفكرة المجتمع التقليدى التراحمى التى تحدثنا عنها سابقاً لأقف عند ما ذكره الدكتور المسيرى فى كتابه من أن لهذا المجتمع جانب مشرق و جانب مظلم .. و بسؤاله عن هذين الجانبين .. و عما إذا كانت هناك ملامح من المجتمع التقليدى فى مجتمعنا الحديث .. و إذا كان لابد من تجاوزها أجابنى قائلاً :

هذا سؤال جيد لأن هذه هى الإشكالية الأساسية التى

تجابه الإنسان العربى والإنسان المسلم .. كيف ندخل المجتمع الحديث دون أن نفقد مزايا المجتمع التقليدى .. لأن فى الغرب الانتقال إلى الحداثة كان يشكل انقطاعاً شديداً و شبه كامل عن الماضى .. وهذا يسبب الغربة و الألم .. توجد جوانب كثيرة فى المجتمع التقليدى جيدة و إيجابية.. مثلاً تماسك الأسرة .. الأسرة تظل متامسكة فى المجتمع التقليدى .. هناك مسئولية .. يعنى أولادى بلغوا من السن عتياً لكن رغم ذلك أشعر أنى مسئول عنهم و هم يشعرون بمسئوليتى نحوهم أيضاً و بواجبهم نحوى .. أما فى الولايات المتحدة فى المجتمعات الحديثة فهناك العديد من المؤسسات التى حلت محل الأسرة . لكن المؤسسات العامة لا يمكن أن تشعر الإنسان بالطمأنينة مثل الاسرة .. بمعنى تَخيل طفلاً يستيقظ فى الصباح و لا يجد أمه وإنما يجد موظفاً حكومياً يرعاه .. هذه تجربة مهولة .. لقد ذكرت تجربة فى (حياتى الفكرية) أن ابنتى و هى طفلة استيقظت من النوم و أخذت تصرخ دون سبب .. فأمها حملتها .. الطريف فى الموضوع أنها حينما كانت تشاهدنى كانت تصرخ أكثر فطلبت منى الأم أن أختفى حتى تهدأ .. ماذا رأت هذه الطفلة؟ لا نعرف .. لكن كان لابد

من وجود أم لتهدىء من روعها قليلاً .. فالمؤسسات التى حلت محل الأسرة لا يمكن أن تولد الطمأنينة فى نفس الإنسان .. و لذلك نجد الإنسان الغربى الحديث رغم وجود مؤسسات رفاه اجتماعى كثيرة للغاية إلا أنه يشعر دائماً بعدم الأمن .. ومع تزايد معدلات التقدم نجد تزايد معدلات الانتحار .. وأخذ المهدئات .. وهكذا .. فالإحساس بالأمن فى المجتمعات التقليدية أعلى بكثير .. وهذه أيضاً من تجربتى الشخصية .. يعنى فى دمنهور عندما أذهب للحلاق يسألنى " إزى الوالد .. إزى خالك ؟ " ثم انتقلت إلى الإسكندرية فوجدت أننى أسلم رقبتى لحلاق لا أعرفه فاندهشت و قلت " هى الناس مجنونة الواحد يسلم رقبته لواحد لا يعرفه " و هذا أيضاً جزء من الانفصال إنى أتأمل فى كل شىء . أيضاً الحركة أقل فى المجتمع التقليدى .. فلنقارن القاهرة الآن بالقاهرة منذ عشرة أعوام أو منذ عشرين عاماً .. أنا أذكر عندما عشت فى القاهرة فى الستينيات حتى أوائل السبعينيات كانت الحياة جميلة و هادئة .. كنا ننام الظهر و نستيقظ لنذهب مع الأصدقاء و نجلس .. كان هناك وقت طويل .. أما الآن فكلنا يجرى كالحيوانات المذعورة .. فهذه هى بعض مزايا المجتمع

التقليدى .. و لكن طبعاً هناك سلبيات كثيرة و هى إن بناء الأسرة المتماسك يقتل الإبداع إلى حد ما .. الطمأنينة الزائدة تهدأ من روع الإنسان و تقلل من إنتاجيته لأن ثبت أن الإنسان غير المستقر إنتاجيته أعلى بكثير من الإنسان المطمئن .. الإيقاع البطيء أحياناً يكون بطيئاً أكثر من اللازم .. القضية هنا هى .. هل من الممكن أن ننتقل إلى المجتمع الحديث و ننقل معنا بعض القيم الإيجابية من المجتمع التقليدى .. بمعنى .. هل يمكن أن نؤسس مدناً تقلل من الحركة قليلاً لأن الحركة الزائدة تقوض الأسرة .. يعنى لابد أن نبدع بحيث ننتقل بالقيم التقليدية و ندخل فى مجتمع الحداثة و لا نسقط فيما سقط فيه الغرب من تقويض إحساس الإنسان بالأمن و إحساسه بالتراحم و هكذا ..

ذكر الدكتور المسيرى فى رحلته الفكرية أنه ينتمى لجيل كان ينضج سياسياً بسرعة مقارنة بأجيال هذه الأيام ' و عن ذلك قال :

اتذكر إنى انضممت لجمعية مصر الفتاة فى سن مبكرة ثم لجماعة الإخوان المسلمين ثم استقلت من جماعة الإخوان المسلمين وأنا فى أولى ثانوى يعنى سنى كان يقرب من ١٣

سنة .و والدى كان فى الحزب السعدى .. و أنا كنت معه فى الحزب .. و انضممت فى مرحلة لاحقة للحزب الشيوعى .. بمعنى إن وجود الأحزاب السياسية ساعد كثيراً على رفع الوعى لأنهم كانوا يتناقشون بخصوص القضايا الجادة وهكذا .. و كان رأيى فى الشباب سلبياً إلى أن اندلعت الإنتفاضة .. فقد فوجئنا أن هناك درجة من الوعى عالية بالفعل و درجة من الالتزام كامنة و تحتاج إلى تطوير ..

اتجه المفكر الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيرى كما سجل فى كتابه إلى المذهب الماركسى المادى و بعد ذلك تآكل هذا النموذج المادى و اتجه إلى الرحابة الإنسانية و عن ذلك حدثنى قائلاً :

كما قلت أنا أراقب دائماً نفسى و كل ما حولى ... فمثلاً بدأت اكتشف فى نفسى بعض النزاعات الخيرة و الشريرة وفى الآخرين لا يمكن تفسيرها مادياً .. مثلا ظاهرة ارتباط الأم بابنها لا يمكن تفسير ذلك على أساس الحوامض الأمينية مثلاً .. حينما يضحى الإنسان من أجل الآخرين .. من أجل الوطن .. حينما تلد أم طفلاً معوقاً فتكرس حياتها لهذا الطفل هذا مختلف تماماً عن السلوك الحيوانى .. عن السلوك

الطبيعى المادى .. لأن الحيوانات حينما يولد حيوان معوق يقتلونه لأنه لا فائدة منه .. بالعكس يشكل عبئاً مادياً على الجماعة .. الإنسان مختلف .. فما مصدر اختلافه هذا ؟ إذن يوجد شيء خارج النظام الطبيعى .. خارج النظام المادى .. هذا الشيء قوى لدرجة تحديه لقوانين الطبيعة المادية .. وبالتدرج وصلت لفكرة الله .. و من الله وصلت إلى الإسلام .. فطول الوقت أراقب نفسى و أراقب الآخرين و أرى هذه النزعات الخيرة و الشريرة التى لا يمكن تفسيرها مادياً .. نحن نحوى بداخلنا الكثير من الأسرار لا يمكن تفسيرها من خلال قوانين المادة . و أعلق هنا أننى استشعرت إعجابا يحمله للإنسان فأجابنى : نعم أنا معجب به لكن لعل الإعجاب بدأ بقبول .. أن نقبل الإنسان بكل عظمته و خساسته .. هذا هو الإنسان و علينا أن نتعامل معه فنحاول أن نزيد من مقدرته على تجاوز عالمه المادى و نهذب قليلاً من نزعته الشريرة .

سجل الدكتور المسيرى فى كتابه رفضه للنموذج المعلوماتى وميله للنموذج التحليلى مؤكداً على أن الحقيقة غير الحقائق وعن ذلك قال :

لأن المعلومة المنفصلة عن سياقها .. عن ماضيها عن مستقبلها عن حاضرها هذه المعلومة يمكن أن يفرض عليها أى معنى .. و سأضرب مثلاً.. إن الفكر الصهيونى دائماً يقول تم هدم هيكل سليمان فى القرن الأول الميلادى و تشتت اليهود فى أنحاء العالم و يقدمون الإحصائيات فنكتشف أنه بالفعل يوجد أقل من مليون يهودى فى فلسطين و يوجد فى حوض البحر المتوسط و بابل و كذا ستة ملايين يهودى معنى ذلك أنهم تشتتوا .. لكن إذا وضعناها فى سياقها و نظرنا إلى الإحصائيات قبل الهيكل سنجد أن هذا هو الوضع قبل هدم الهيكل و أن هدم الهيكل لم يكن السبب و إنما السبب هو الرغبة الإنسانية العادية فى تحسين الدخل و أسلوب الحياة .. سنجد أن يهود الإسكندرية كانوا أكثر من يهود القدس قبل سقوط الهيكل .. فمعنى ذلك أن المعلومة قدمت إلينا و هى معلومة صادقة و ليست كاذبة و قد فرض عليها معنى صهيونى لأنها معزولة عن سياقها .. أيضاً عندما يقولون ستة ملايين يهودى قتلوا فى الحرب العالمية الثانية .. لنضعها فى سياق.. سنجد مايلى صحيح يمكن ستة ملايين يهودى لكن سنجد مثلاً ستة ملايين بولندى و عشرة ملايين

روسى .. بمعنى أن الستة ملايين قد تكون صحيحة أو خاطئة .. لكن إذا وضعت فى السياق لن يكون اليهود هم الضحية .. و بعد ذلك نسأل ستة ملايين اختفوا لكن هل اختفوا بأفران الغاز أم أيضاً من خلال الغارات و الأوبئة .. فالمعلومة فى هذه الحالة تصبح مركبة جداً و لا تكون مسألة سببية بسيطة.. النازيون أبادوا ستة ملايين .. سقط الهيكل تشتت اليهود .. سنكتشف أموراً كثيرة تجعل السببية البسيطة التى يطرحها الصهاينة غير ذات موضوع .

أثناء دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على درجة الدكتوراه ' كان الدكتور المسيرى يتفاعل مع المجتمع من حوله دون أن يفقد ذاته كما ذكر فى رحلته الفكرية ' وبسؤاله عن الكيفية التى حقق بها ذلك قال :

فى دراستى للدكتوراه تعلمت الكثير فى الولايات المتحدة .. و كان لى صداقات مع الأساتذة و الطلبة و تفاعلت معهم .. و اكتسبت خبرات فكرية و تحليلية كثيرة .. ولكن فى ذات الوقت كان موقفى موقفاً نقدياً بدرجة أثارت حفيظة الأساتذة الذين ناقشونى فى رسالة الدكتوراه .. فرسالتى كانت عن "والت ويتمان " الشاعر الأمريكى و كانوا يسمونه شاعر

الديمقراطية الأمريكية أنا طرحت رؤية مغايرة .. قلت لهم هو شاعر الفاشية الأمريكية.. هو شاعر لا يرى البشر ككائنات لكل كائن منها خصوصيته و إنما يرى تحركاً يشبه تحرك المادة و أن البشر عنده عبارة عن ذرات .. تماماً مثل رؤية "فوكوياما " عن نهاية التاريخ .. فكان هذا شكلاً من أشكال الموقف النقدى الذى جعلنى دائماً أتفاعل دون أن أفقد ذاتى و اتذكر واقعة أخرى كتبت عنها أيضاً فى حياتى الفكرية ... حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ كنت قد تعلمت فى الأسكندرية على الطريقة الإنجليزية و هى كتابة المقالات وفى الولايات المتحدة بدأوا فى الاختبارات الموضوعية .. و هى التى يجيب فيها الإنسان بنعم أو لا .. ولم أكن معتاداً على هذا النوع من الإمتحانات و هو نوع أنا اعتقد أنه أبله إلى حد كبير لأنه لايقيس شىء .. يقيس سرعة البديهة فقط لا يقيس العمق لا يقيس القدرة التحليلية .. فدخلت الإمتحان ورسبت فيه بجدارة لأنى كنت انظر فلا أجد الإجابة بلا أو بنعم إنما بينهما .. فكنت اكتب بينهما .. فحينما سقطت بجدارة قرروا أننى أحتاج لمدة عامين لدراسة اللغة الإنجليزية قبل أن أذهب لكلية الدراسات العليا فقلت لهم إن الخلل ليس

فىّ و إنما فى الإمتحان وأنا الآن عرفت اللعبة .. فاعطونى الإمتحان مرة أخرى .. رفضوا فى بداية الأمر و لكننى أصررت .. فأعطونى الإمتحان مرة ثانية فحصلت على أعلى درجة .. فكان ذلك شكلاً من أشكال الرفض للمجتمع الأمريكى و بعض قيمه و فى نفس الوقت مقدرة على التعلم منه .

العودة إلى مصر و الذئاب الثلاثة عنوان يطالع القارىء لهذه الرحلة الفكرية الثرية .. و عن قصة هذه الذئاب حكى الدكتور المسيرى قائلاً :

أول ذئب اسميته ذئب الثروة و هو أنى كنت أحسن حالاً من كثير من زملائى .. فعندما عدت من الولايات المتحدة وجدت نفسى قادراً على أن أتفرغ للبحث بحيث إنى كنت أدرس نصابى من المحاضرات فقط و أرفض أن أخذ أية محاضرات زائدة و أرفض كتابة المذكرات و هكذا .. بينما كان الكثير من زملائى يضطرون إلى التدريس عشرين أو ثلاثين ساعة فى الأسبوع و كان يضايقهم ذلك تماماً .. فولد هذا عندى إحساساً شديداً بالذنب لأن عندى مقدرة مالية .. إلى جانب شىء معاكس تماماً أن أخوتى وجدتهم أحسن

حالاً منى .. أنا كنت أستاذاً جامعياً و هم من كبار التجار ..
فبدأت أفكر فى أن أعمل فى التجارة خاصة أنه كان لى
نصيب فيها .. حسمت المسألة بطرق عديدة من ضمنها أننى
اكتشفت أن أسلوب حياتى كأستاذ جامعى أجمل بكثير من
أسلوب حياتهم .. فنحن نذهب للمسرح و السينما .. وكنا
نذهب للنيل نستأجر مركباً شراعياً ... وعندناوقت نقرأ
روايات .. أسلوب حياة جميل جداً لا يمكن لأى قدر من المال
أن يعوضه .. إلى جانب أننى اكتشفت أن جانباً كبيراً من
أصدقائى الذين يدرسون محاضرات إضافية كانوا يحققون
من الأموال ما يفوق ما عندى بمراحل .. فاكتشفت أن المسألة
ليست ما عندى من دخل إضافى و إنما رغبتى أنا فى أن
أكتب .. و أن أصدقائى حققوا دخلاً إضافياً مثلى عشرات
المرات و رغم ذلك مستمرين .. فذلك فك عقدة الذنب قليلاً منى
تجاه ذئب الثروة هذا و تغلبت عليه و وجدت أن الثروة غير
مطلوبة فى حد ذاتها و إنما أنا أريدها حتى يمكننى أن
أستمر فى العملية البحثية .. أما ذئب الشهرة .. أنا عدت إلى
مصر عام ١٩٦٩ و كان الدكتور أسامة الباز صديقى فى
الولايات المتحدة فقدمنى للأستاذ هيكل و وجدت نفسى فجأة

فى قمة السلم أكتب فى الأهرام و أنا لم أتجاوز الثلاثين بعد .. و كانت مقالاتى تحدث صدى .. ثم جاء عصر التطبيع بعد أن كنت فى الإذاعة و التليفزيون همشت و منعت .. هنا ظهر ذئب الشهرة .. أننى كنت مشهوراً ثم أصبحت غير معروف على الإطلاق فبدأت أفكر .. يعنى أتذكر أنى كنت فى طريقى للأهرام و أردت الدخول عام ١٩٧٩ فرفضوا .. فاتصلت بمساعدتى السابقة فأعطتنى تصريحاً حتى أدخل و أنا الذى أسست مكتبة مركز الدراسات السياسية و الإستراتيجية .. فجرحتنى هذه المسألة لكننى تأملت فيها .. فوجدت اننى أريد الشهرة بشروطى و لأسباب محددة و هى أن الشهرة تعنى ذيوع أفكارى .. فقلت أننى إذا أصبحت مشهور حسب شروط الأخر هذه مسألة لا أريدها على الإطلاق .. فقنعت بالغياب هذا إلى أن صدرت الموسوعة و هى التى حققت لى كثيراً من الشهرة و ذيوع الفكر حسب شروطى .. الذئب الثالث كان أكثرها ضراوة و هو الذئب المعلوماتى و هو كان طموحى أن أكتب كتاباً نظريا بشكل مجرد للغاية لكنه موثق توثيقاً تفصيلياً محدداً فى ذات الوقت .. أنا أذكر أصدقاء أكثر ذكاء منى و أكثر إلماماً منى لكن توفاهم الله دون أن

يكتبوا شيئاً لأن الذئب المعلوماتى نهشهم تماماً .. و تعلمت من هذا أن أقلل طموحى قليلاً و أن أرضى بما هو ليس بمثالى .. ومن ثم صحيح أن الموسوعة استغرقت منى ما يقرب من الثلاثين عاماً لكن رغم ذلك توقفت فى نهاية الأمر ونشرتها و أنا أعرف أن فيها ثغرات كثيرة لكن أنا بدأت أشكل مجموعة بحثية جديدة لتحديث هذا .

فى نهاية الرحلة سرد الدكتور عبد الوهاب المسيرى قصة أهداها لكل مفكر و مبدع و فنان ' و أعاد سردها لى قائلاً :

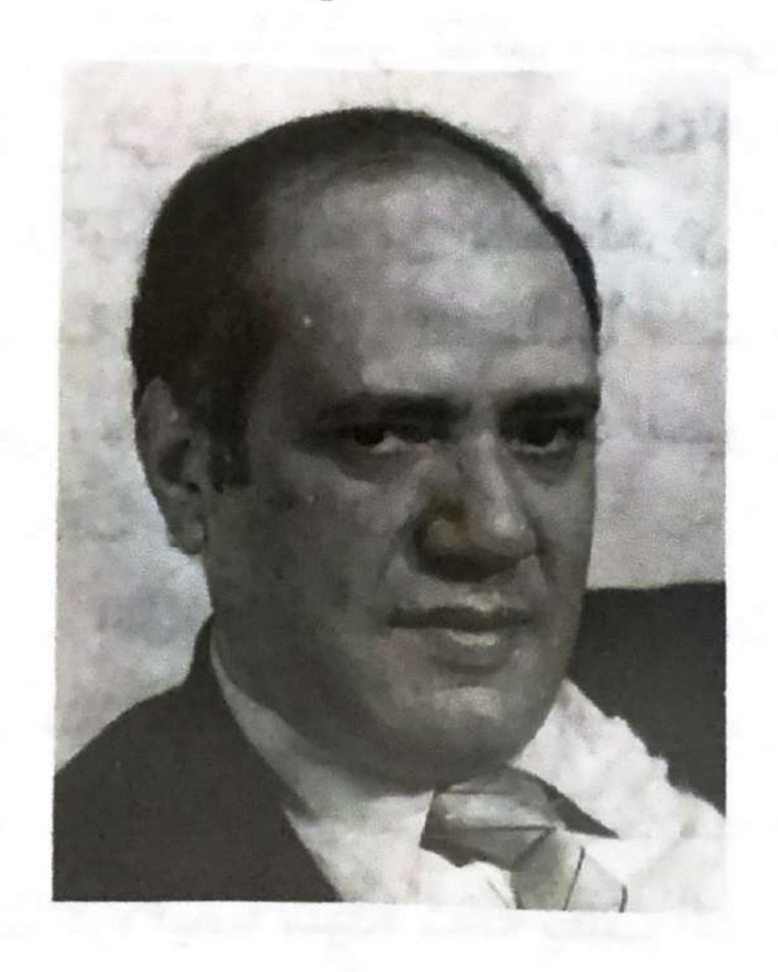
القصة مأخوذة من كتاب هنرى ديفس و هو مفكر و أديب أمريكى ترك عالم الاستهلاك و المادة .. و أقام فى غابة لمدة عامين .. القصة خيالية لكنها فى غاية الجمال عن هذا الفنان الذى ذهب و قرر أنه يريد أن ينحت عصا جميلة .. فذهب ليبحث عن فرع شجرة جميل و استغرق تماما فى عمله لدرجة أنه نسى الزمان فلم يقترب منه الزمان .. المدن و الأسر الحاكمة تنهار و هو مستغرق فى عمله و بعد أن وجد الغصن الذى يريده جلس على كومة تراب كانت هى المدينة التى خرج منها و نحت عصاه و تنتهى القصة .. فلأنه استغرق فى عمله العظيم تماماً فلم يقترب منه الموت .. فأنا أهدى هذه القصة

الجميلة الشاعرية إلى كل إنسان يستغرق فى عمله لأن فى نهاية الأمر الإنسان الذى يكرس نفسه لرسالته و عمله هو إنسان يساهم فى بناء المجتمع الإنسانى و هى مساهمة لن تضيع سدى بإذن الله .. هى شكل من أشكال الخلود فى الدنيا و الآخرة .. بمعنى أن الله سيجازيه على ما فعله وسيكافأ عليه بإذن الله.

و تظل رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيرى الفكرية مصدراً ملهماً للفكر و الإبداع لأجيال متعاقبة

عبدالوهاب مطاوع

ساعات من العمر



"إنها ساعات من العمر عشتها و عانيت انفعالاتها سلباً و إيجاباً، و فكرت فى أن أشركك معى فيها ، لعل فيها بعض ما يضيف إلى خبرتك بالحياة شيئاً جديداً ، أو لعل فيها ما يزيد من إيمانك بالحياة و الخير و الإنسان "

أشارت عقارب ساعة معصمى إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل .. كنت بانتظار الكاتب الصحفى الكبيرعبد الوهاب مطاوع فى مكتبه بمبنى جريدة الأهرام .. أنقل بصرى لأتأمل لوحة مصاغة من الخط العربى الجميل، تقول الخطوط الطيعة المنسابة " إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس ، حببهم إلى الخير و حبب الخير إليهم ، أولئك الأمنون من عذاب الله يوم القيامة ."

تلخص هذه اللوحة الخطية بشكل كبير شخصية الكاتب الصحفى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع الذى كرس قلمه وحياته لخدمة الناس ، و الكتابة عن أحزانهم و أحلامهم و آمالهم .

كان بانتظاره أيضاً سيدة شابة يغلف الحزن ملامحها ، على ما بدا لى أن لديها مشكلة تود استشارته فيها ... لم أطل النظر إليها حتى لا تشعر بحرج من فضولى الإذاعى ، دخلت السيدة لرؤيته قبلى ...

خرجت بعد نصف ساعة تقريباً وهى تجفف دموعها وتحمل ورقة أعطتها لمديرة مكتبه .. ربما كان بها توصية ما . و حان دورى لمقابلته ، استقبلنى بابتسامة دافئة معتذراً لإبقائى بانتظاره مدة طويلة ، بادلته التحية مضيفة أننى أعد لهذا اللقاء الإذاعى منذ فترة و أننى سعيدة لتمكنى من الحصول على موعد بالرغم من شدة ازدحام جدوله اليومى . و بعد هذا التعارف القصير الهادىء بدأ حديثنا عن ساعات من عمره ... ساعات تختلط فيها الأحلام بالواقع ، لتصبح الأحلام نقطة انطلاق إلى عالم الواقع ، تُربتُ عليه ، فتذيب قسوته بالحب و الأمل و الشعور بالأخرين ، تلك الساعات التى اختارها من حياته ليشرك قراءه فيها ، والتى قد تشوب بعضها مسحة من الحزن ، و لكن ربما يكون ذلك أمراً صحياً لنا ، فهو يجعلنا نتأمل ذاتنا الإنسانية المدهشة ، نتأمل علاقاتها بكل ما حولها من خير و شر ، من أحزان و أفراح ، من خوف و إقدام ، علاقتها بالماضى و ذكرياته ، بالمستقبل وأحلامه ، علنا نصل إلى فهم أعمق ، وتقبل أكثر لطبيعتنا البشرية. وعن السبب وراء اختياره لساعات من عمره ليحدثنا عنها قال:

لم يكن عندى هدف كتابة السيرة الذاتية و لم أشعر أن فى حياتى ما يستحق أن أفرد له عملاً أدبياً كاملاً ، إنما كما يعبر عنوان الكتاب .. كتبت عن مواقف فى حياتى ، هذه المواقف استغرقت ساعات أحياناً ، و سنوات فى أحيان أخرى، ثم جمعتها فى هذا الكتاب . فالهدف كان فى الأصل تسجيل هذه الساعات أو الكتابة عن الذكريات التى استدعتها هذه المواقف فى حياتى و كيف أثرت فيها .

تحت عنوان الذكرى البعيدة ... يرى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع أن " على الإنسان أن يختار لنفسه طفولة سعيدة ، لأن بعض مؤثرات هذه الطفولة سوف تصاحبه معظم مراحل حياته فيما بعد .. و سوف تؤثر تأثيراً خطيراً على تكوينه النفسى ، و قدرته على التفاعل مع الحياة و الاستجابة لدواعى الحزن و السرور فيها" ، ساعات من العمر ص٢٩

و يتذكر كاتبنا حادثة بعيدة كان لها أثر عميق على طفولته ، وهى مشاهدته لغرق رفيق له و خوفه من التصريح بما رأى ، و عن تلك الذكرى البعيدة حدثنى قائلاً:

كما كتبت أعتقد أنها أورثتنى فى سن مبكر شيئاً من الميول الإكتئابية إذا صح التعبير ، و أورثتنى إحساساً غير

مفهوم بجلد الذات عن أشياء لم ارتكبها ... أنا شعرت كما سجلت فى هذا الفصل بالذنب بالرغم أنه لم يكن لى أى دخل فى المأساة التى شاهدتها.. يعنى أنا شاهدت أمامى رفيق طفولة يعوم فى نهر النيل ، وكنا فى سن سبع أو ثمانى سنوات ، و بميول الأطفال الاستعراضية أراد أن يستعرض أمامنا- أنا و بقية الرفاق- قدرته على السباحة فدخل فى الغريق .. فغرق أمامنا ، مفيش علاقة سببية بين الحادث الذى شاهدته و بين أى تصرف شخصى او إرادى لى ، و بالرغم من ذلك كابدت الإحساس بالذنب فترة طويلة ، لو سألتينى لماذا ؟ أو منشأ هذا الإحساس.. أقول لك لأنه ساورنى الشك فى أن هذا الرفيق لو لم نظهر فى هذه اللحظة أمامه لما أراد أن يستعرض أمامنا ، فينتهى الأمر بهذه المأساة الإنسانية .. هذه العلاقة السببية غير واضحة لكننى أقمتها ، و تسببت لى فى بعض المعاناة النفسية لفترة من العمر .

اشترك كاتبنا و هو لم يتجاوز الثلاثة عشرة من العمر بعد و ثلاثة من أصدقائه فى تأليف كتاب و طبعه بهدف" تثقيف" الشباب على حد تعبيره ، كتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع

عن هذه التجربة تحت عنوان (نحو المجد) مستخدماً أسلوباً ساخراً بعض الشيء ، وبسؤاله عن السبب وراء ذلك قال:

ربماالمفارقة بين جلال الحلم الأدبى و تواضع إمكانيتنا الأدبية و المادية و الاجتماعية فى هذا الوقت ، يعنى نحن راودنا الحلم بإصدار كتاب ، و كان متوسط أعمارنا فى الوقت ده لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة ، مجموعة من الصبية أو الغلمان.. صحيح... إن جاز التعبير يعنى .. مضروبة فى الأدب و الفن بمعنى أننا نتكلم فى الأدب والفن أحياناً ، ونحاول أن نقرأ فى حدود إمكانياتنا المتواضعة... لكن أنا توقفت أمام المفارقة بين أن تكون فى سن التكوين و تشعر أنك قادر على أن تعطى الأخرين !" يعنى أنت عندك إيه علشان تعطيه للناس ؟!"

الإنسان يكتب كى يعطى الأخرين خلاصة تجربته بالحياة، و ذوب أفكاره و رؤياه .. رؤيته للأشياء ، فأنت فى سن ١٢ او ١٣ عندك إيه تقدمه للقارىء !و من هنا جاءت المفارقة التى تستدعى السخرية

.. و المفارقة تكتمل هنا حين تعلمين أننى لم أصدر أول كتاب بشكل جاد لى .. بمعنى كتاب إلا فوق الأربعين من

العمر ، يعنى احتجت إلى ما يزيد عن حوالى سبع و عشرين سنة بعدها للاستقبال علشان أزعم بعد ذلك أننى ربما يكون عندى ما يسمح بالإرسال .

أعلق هنا أنه لا غبار على أحلام الطفولة إذن لأنها تعطينا دفعة للأمام بدليل أننى أتحدث الآن مع الكاتب الصحفى الكبير عبد الوهاب مطاوع و هو على قمة الأقلام الصحفية المصرية... يضيف قائلاً :

الله يحفظك .. يعنى لا بأس بالأحلام و بعض الأعمال تبدأ بضرورة الحلم .. و يكفى فقط أن أحلامنا قد شغلتنا بمثل عليا ربما كانت أكبر من إمكانياتنا فى هذا الوقت و لكن يكفى أنها كانت تصرفنا عن أشياء أخرى مما يهتم بها الغلمـــان فى هذا الوقت و التى يمكن أن تكون من أبواب الإنحراف ٬فقد جعلت لنا أهدافاً شريفة فى الحياة فى هذه المرحلة .

فى (ساعات من العمر) يبوح لنا كاتبنا بسر فى حياته الخاصة ، على ما يبدو أنه تزوج مرة ثانية وأنجب أيضاً ولكنه لا يعرف متى تزوج من سيدة أخرى .. بدأت القصة مع بريد الجمعة ٬ فالكاتب يتلقى من قراء و قارئات هذا الباب

الصحفى الهام عدداً ضخماً من الرسائل كل يوم ، و وسط هذه الرسائل وجد رسالة اعتقد فى البداية انها وصلت إليه عن طريق الخطأ ، فهى تبدأ بكلمة زوجى العزيز و تتطرق لموضوعات أسرية ثم تنتهى بطلب لقاء فى موعد و مكان محدد بالإسكندرية .. و الرسالة خالية من اسم الراسلة وعنوانها ، و لكن ما لبث أن تعاقبت الرسائل بإنتظام ، فلم يعد يخالجه شك من أن هذه السيدة تقصده شخصياً، و تكتب إليه متخيلة أنه زوجها .. فقدر أن هذه السيدة تعانى من الوحدة و قسوة الحياة اليومية، و يبدو أن رفيقها لم يعد معها لسبب من الأسباب فرسمت فى خيالها زوجاً يشاركها همومها ، و عن تلك الرسائل و تعامله معها قال :

أنا تعاملت مع هذه الرسائل على أنها نوع من الترطيب.. يعنى هذه الرسائل كانت نوعاً من أحلام اليقظة .. و أحلام اليقظة وسيلة من وسائل التنفيس عن النفس و اطلاق البخار المكتوم و التخفف من ثقل الواقع و أحزانه فى بعض الاحيان، و هى لا بأس بها من ناحية الصحة النفسية بشرط ألا تتجاوز حدود الاعتدال و بشرط ألا تختلط الحدود بينها وبين الواقع.. فهذه الرسائل أنا اعتبرتها نوعاً من الترطيب و الإفضاء النفسى .

(خلف النافذة) عنوان واحدة من قصص (ساعات من العمر) و عن ما كان وراء هذه النافذة و أثر تأثيراً عميقاً فى كاتبنا قال :

أنا كنت فى هذه الفترة أعيش وحيداً فى شقة صغيرة بالمنيل فى أعقاب تخرجى من الجامعة مباشرة ' كنت أعيش مغترباً عن أهلى الذين يعشون فى مدينة صغيرة بالوجه البحرى و كنت قد فقدت والدى رحمه الله قبلها بأسابيع وكنت أعانى من حالة إكتئابية ضاعف منها ظروف الوحدة والغربة ، فكان يستعصى على النوم حتى مطلع الصباح تقريباً ، و كنت أقيم فى هذه الشقة فى دور أرضى فوق البدروم ، و كان سكان البدروم من الفئات الشعبية كل أسرة تقيم فى غرفة ونتيجة لقرب المسافة كنت كثيراً ما و أنا فى غرفتى ساهراً أقرأ أسمع أصواتهم يتبادلون السمر و الحكايات و مشاكل الأبناء ، و يتبادلون النكات و أحياناً الشجار و كنت أستشعر بعض الألفة من هذه الأصوات، و كنت أتخيل أشكالهم .. لم أكن أعرف أشكالهم كثيراً فقد كنت ألقاهم صدفة و لكن مما أسمعه من أحاديثهم أكاد أكون لهم صوراً فى مخيلتى... وفى فجر أحد الأيام كانت تقيم فى غرفة من غرف البدروم

أسـرة مكافحـة ، الأب فيـهـا يعـمل عـامـلاً ، و الأم تعـمل فى توزيع الخـبز فى الصـبـاح ، مـا ترامى إلى من خلف النافـذة هو صـوت الزوج يحـاول إيقـاظ زوجـتـه من النوم فى الوقت المعتـاد كل يوم لكى تنهض لأداء عـملها و هو إنهـا تذهب إلى المخبز ، و تأخذ الخبز و توزعـه على الجـهات التى توزعـهـا عليـهم ، فما سـمعتـه هو زوج يدعو زوجـتـه أو رفيـقـة حـيـاته للنهوض من النوم ... يعنى يقـول لها" اصـحى يا فلانة ".. فلا تصحو ، فيقلها " اصحى يا فلانة " ... فلا تصحو، فيبدأ فى رفع صوته قليلاً فلا تصحـو ، فـيبدأ فى الانفعـال عليـها فلا تصـحو ، ثم يتصاعد الانفعال فلا تصـحـو ، و فـجـأة يصـرخ ناعـيـاً إياها لأنه اكـتـشـف أنـهـا فـارقت الحـيـاة ، فـالمشـهـد الدرامى كله أنا سمعته و الحمد لله أننى لم أكن شاهداً عليه بالرؤية .. فلكِ أن تتخيلى كم أصابنى بمزيد من الإكتئاب فى مثل هذه الظروف .

ياريت تعود ... ذلك الحلم المستحيل الذى يحلم به الإنسان دوماً ... الحلم باستعادة ما كان ..

اختـار الأسـتاذ عبد الوهاب مطاوع هذا العنوان لواحدة من سـاعات عمره يقول فيها:

"لا أعرف ماذا تفعل بى هذه الأغنية حين أسمعها كل مرة .. و أحمد الحجار يغنى كلماتها الحزينة مغمض العينين .. و صوته المصهور بنار الألم يصور حرقة من يتمنى عودة السعادة المفقودة ..

و الحب الضائع ، و يتوسل له أن يعود ، و هو يعرف جيداً أنه لن يرجع ' و لن يعود .. فيتحول نداؤه إلى أمنية مستحيلة ' و حلم بعيد .. و يهتف فى مرارة و حسرة : يا ريت تعود .

نعم ' لا أعرف ماذا تفعل بى و بمشاعرى هذه الأغنية الحزينة كلما سمعتها ' و لا لماذا تهيج أحزانى القديمة ' وتثير تأملاتى فى الدنيا و أحوال الإنسان المعذب دائماً بالأمل فى السعادة الضائعة .. و الحلم المفقود « عود ، يا ريت تعود » ساعات من العمر ص ١٧٩

و عن الأشياء التى تنطبق عليها أمنية أو حلم " يا ريت تعود " بالنسبة إليه أجابنى

بنبرة متأملة :

أشياء كثيرة يا أستاذة ..... استعادة أيام البراءة .. الذكريات الجميلة ...سنوات التطلع إلى المستقبل بنفس تجيش بالأمل و الرغبة فى الحياة ... المرحلة التى يشعر

الإنسان فيها أن المستقبل أمامه و ليس من خلفه .. كما هو الآن فى مثل هذه المرحلة من العمر فيعنى يا ريت تعود حاجات كثيرة جداً .. الصحبة الجميلة التى انقضت ..الأعزاء الذين فارقونا إلى الحياة الأخرى .. الطفولة و سنوات البراءة ... حاجات كثيرة .. "يا ريت " .. لكنه حلم مستحيل كما تعلمين.

و بسؤاله عن الكيفية التى يرفه بها عن ذاته وسط هذا الزخم من المشكلات الإنسانية أجابنى قائلاً :

فى صحبة الأصدقاء ' فى مشاهدة الأعمال الدرامية فى التليفزيون .. فى الزيارات العائلية ..فى القراءة ..

توجد فى الحياة اهتمامات كثيرة تعادل جرعة الهموم المكثفة . لاحظت نظرة حزينة بعينيه و أخبرته بذلك فأجاب :

"مش عارف .. يمكن علشان " كان عندى ضيوف قبلك عندهم مآسى مؤلمة جداً .. من الجائز أن يكون هذا هو السبب .

رحم الله كاتبنا الكبيرالأستاذ عبد الوهاب مطاوع الذى اشتقنا و اشتاق قراؤه إليه فيما يعد حلماً أخر من

أحلام (يا ريت تعود) المستحيلة .

عدلي رزق الله

الوصول إلى البداية



« الفن بداية أبدا .. و الفنان على طريق البداية حتى موته الجسدى ، و الوصول خدعة ، لو اعتقدها الفنان كان فى هذا الاعتقاد نهايته ".

لوحاته قصائد شعرية صاغتها فرشاة شاعر يملك وحده سر الألوان المائية ' بشفافيتها و دكنتها التى أدهشته فعشق كل منهما الآخر ... منحته سرها .. فمجدها الفنان بلوحات أعادت اكتشافها من جديد.

إنه شاعر الألوان المائية -كما يطلق عليه- الفنان التشكيلى عدلى رزق الله .

كان اللقاء فى مرسمه بمنطقة كينج مريوط بطريق الإسكندرية ، و الذى منحه اسم معشوقته فأصبح (بيت المائيات) الذى يترك القاهرة من أجله ليعيش مع اللوحات والطبيعة ، و الذى شاهد ولادة أهم أعماله على حد تعبيره . يضم بيت المائيات غرفاً عدة للرسم ، كما يضم غرفة بها مكتبة ضخمة تحوى صنوفاً مختلفة من الكتب ، يحيلك المكان إلى عالم خاص بعيداً عن صخب المدينة و ضوضائها ، ويساهم فى خلق هذا الشعور تلك الحديقة البديعة المحيطة بأرجاء البيت و كأنها قطعة من ريف الصعيد حيث نشأ

الفنان ، وفى تلك الحديقة جلسنا نتجاذب أطراف حديث ممتع وشائق ، فالفنان يتحدث بلغة الفن و الفلسفة معاً ... و قد بدأ حديثنا من عنوان سيرته الذاتية (الوصول إلى البداية فى الفن و الحياة) الذى اختاره ليلخص به رؤيته الخاصة للفن و الحياة ، والتى حدثنى عنها قائلاً :

الإنسان على طريق عمره كله لا توجد محطة للوصول ، إذا اعتقد الفنان أو الإنسان أنه وصل إلى نهايته فهذا الاعتقاد معناه إنه سيتوقف، فالوصول إلى البداية هو موقفى الدائم الأبدى ، أنا الآن بعد الستين مثلاً أبدأ بداية جديدة حقيقية ، ليس معنى ذلك أنها منقطعة عن سابقتها لكنها بداية ، فأنا دائم التطور و دائم الاستمرار و دائم البحث عن جديد و عن بداية جديدة .. هو طريق و هذا اللفظ من الممكن أن تجديه عند المتصوفة عموماً هوطريق مجاهدة لا وصول...

ولد الفنان عدلى رزق الله بأبنوب الحمام أحد مراكز محافظة أسيوط فى صعيد مصر، و قد كتب يقول عن طفولته: " أمضيت طفولتى ملتصقاً بالحواس ، حيث الروائح و البصر أبطال مسرح حياة القرية هذا ما تحتفظ به الذاكرة

حتى الآن بعد مرور ستين عاماً بالتمام و الكمال . " «الوصول إلى البداية » ص ٢٥

و بسؤاله عن نشأته فى القرية و مدى تأثره بها أجاب :

يتشكل الشخص تشكلاً حقيقياً فى طفولته.. مثلاً أمى بعد أن تخطت التسعين من العمر رحمها الله بدأت تغنى أغانى طفولتها و كان هذا واضحاً جداً .. أن الذاكرة تحتفظ بما ينقش عليها فى الطفولة ' فأنا أتخيل الآن أن الطفولة عبارة عن نقش حقيقى دائم و أبدى للإنسان ' ثم تستمر حياة الإنسان بعد ذلك فى محاولات للتحصيل أو محاولات للحياة لكن يظل الطفل قائماً ' فأبنوب الحمام إذا جاز التعبير قد تكون هى طفلى من حيث البيئة .. من حيث المناخ .. و مازالت علاقاتى حميمة بالقرية أعود للحج إليها كما كتب إدوارد الخراط ' مرة اصطحبت صديقى الكاتب إدوارد الخراط فقال " كنت أراه كأنه يحج إليها" .. روائح الغيط .. البرسيم .. الفرن ، عندما تذكرت الروائح مثلاً تذكرت أشياء غريبة جداً كنت لا أتخيل إن الذاكرة تجود بها مثلاً روائح حريق الفرن مثلاً بحطب القطن غير البوص المتخلف من الذرة .. تلك الروائح التى شكلت و مازالت تشكل جزءا أساسياً فى

حياتى، و فى بيت المائيات الذى نسجل فيه الآن ، أعتقد أن هناك جناحاً أميل إلى أن يكون إستجلاباً لطفولتى .. فيوجد بعض الأوز و البط .. و البركة و أشياء من هذا القبيل .

أعاد ميلاد أول لوحة للفنان فى باريس إلى ذاكرته أصداء ذكرى أليمة فى طفولته .. و هى ذكرى جدته أو جدتهم كما يطلق عليها ، و التى كانت تفرق فى المعاملة بينه و بين أبناء خاله ...

و عن تلك الذكـرى و السـبب وراء تزامن تذكـره إياها وميلاد لوحته الأولى قال :

طفت هذه الذكرى التى احتفظت بها ربع قرن كامل .. أعتقد لأنها كانت لعبة طفل احتفظت بها .. حرمت جدتهم وأنا حريص أن أقول جدتهم ، حرمتها من ان تقتل الطفل فهى لم تكن عادلة ، و قد يكون كبت هذه القصة ربع قرن كامل وخروجها فى اللحظة التى وجدت أننى ألعب كطفل الفن لها دلالة عالية بالطبع .. و أنا لم استطع التسامح حتى الآن .وأتساءل هنا إذا ما كان الشعور بالتميز هو المحرك لتلك الذكرى فأجابنى

قائلاً :

التميز .. أنا فى الحقيقة لا تهمنى هذه الكلمة ..أنا لا

أبحث عن أن أكون مميزاً عن أحد .. أنا بحثت فقط عن نفسى ' و عندما ربيت بنتاى " تمر " و " داليا " كان المبدأ الأول فى تربيتهم ألا تحاولا التصارع مع الأخرين أو التسابق معهم أو الحصول على أعلى الدرجات كما نربى أولادنا الآن وهذه كارثة قومية .. قلت لبنتىّ حاولا أن تصلا إلى حدكما الأقصى فى اللعب .. فى الفن .. فى العلم .. فى الحياة .. فى الحب .. و إذاكان حدك الأقصى متوسطاً أو عالياً أو صغيراً فهو حدك الأقصى .. هذا هو مبدأى الأول .. فأنا بحثت عن أن أكون نفسى .. نفسى التى حاول الآخر ممثلاً فى جدتهم أن يقتلنى أو يجعلنى أتملقه أو يجعلنى أحاول كسب رضائه..

و للفنان عدلى رزق الله عشق خاص للنخيل و عن ذلك قال:

النخيل قد يمثل رمزاً صعيدياً بالنسبة إلىّ ، النخيل شجرة لها سلة شائكة ، و جذعها يتحمل مقاساة جنوب مصر، الليف الذى يحمى هذاالنبات ، الليف الذى ننزعه سنوياً بقدر ما حتى تستطيل النخلة إلى أعلى و نستخدمه بدلاً من لوف الحمام و بدلاً من أشياء كثر ، و عملنا منه أو فتلنا منه الحبال .. هى شجرة معطاءة جداً ، إضافة إلى البلحة صادقة

الحلاوة خاصة البلح الأسيوطى و هو مشهور فهو ينز عسلاً ، لا تحرقة حرارة شمس أسوان فيتحول إلى تمر ناشف ، وليس مثل بلح وجه بحرى .. هذه الحلاوة الصادقة التى تجديها فى الإنسان فى صعيد مصر .. امرأة كان أو رجلاً عندما يجود الزمن بأن تكشفى أعماقه ، و عندما ننزع عنه ذلك الخجل الأزلى الذى يحاول أن يظهر كرجل أسد .. أنا أرى الرجل الصعيدى أشد الرجال رقة ، لقد سطحهم مجتمعنا ، لقدحولهم إلى رجال أشناب مبرومة و أصحاب لهجة إذاعية ليست حقيقية .. يعنى الصعيدى لا يتكلم مثلما يتكلم الصعيدى فى المسلسلات .. و قيسى على ذلك أشياء كثيرة جداً ، الصعيدى نبيل جداً مثل تلك النخلة النبيلة ، الصعيدى يذوب رقة و حناناً ، قسوته الظاهرية فى تربية ابنه ليست قسوة هى منتهى الحب .. إنه يعصرابنه من كل مظاهر الدلع حتى يصبح قادراً على أن يحيا تلك الحياة الصعبة ، إنه يؤهله للحياة الصعبة...أليس ذلك هو منتهى الحب ؟ مَنْ منا عرف بلاده حتى الآن ! لم نعرفها حقاً .

و أتساءل هنا إذا ما كان حبه للنخيل وراء تسميته لابنته الكبرى باسم (تمر) فأجابنى قائلاً :

ابنتى الكبرى ولدت فى باريس .. أثناء إقامتى الباريسية ، و كان لابد من التشبث بشىء ما .. كانت أعماقى تقول لى إننى عائد رغم النجاحات التى حققتها و التى كانت من الممكن أن تضعف موقفى

من العودة مثل أن تختارنى فرنسا كى أعلم فى جامعاتها الفن ... فتسمية ابنتى تمر واضحة تماماً إنى حاولت

أن ألجأ إلى اسم أحبه ، و تذكرت اسم «تمرحنة» الاسم المعروف و لأننى أحب التركيز حتى فى لوحاتى.. لوحاتى هى تركيز صافٍ جداً .. شعرى جداً .. فألغيت " حنة " واحتفظت بكلمة " تمر " لأننى أحب التمرحقاً ..

و انزعجت ابنتى فى البداية لأنها عندما كانت فى المدرسة و فى إحدى المرات فى مكبر الصوت قالوا .. نمر عدلى رزق الله) ، لكنها الآن عاشقة لاسمها... تحب اسمها، و هناك أكثر من تمر فى الحياة ..منهن فتاة فى أمريكا اللاتينية كانت جارة لنا فى باريس .. سميت تمر أيضاً.

فى الفصل الثالث من (الوصول إلى البداية فى الفن و الحياة) كتب الفنان عن مرحلة دراسته بكلية الفنون الجميلة التى بدأت عام ١٩٥٥ بعد حصوله على شهادة التوجيهية "

اختلفت الدراسة بالكامل ، النقيض الكامل للحلم " «الوصول إلى البداية» ص ٤٧ .

و عن المدى الذى اختلفت فيه الدراسة الأكاديمية عن الحلم الذى كان يحلم به كونه فناناً ناشئاً قال :

كانت الدراسة مدرسية و ليست حتى أكاديمية .. قاسية ولكننى تتلمذت بدأب و أدب ، هذا الدأب أعطانى أشياء لكنه حجز عنى الفن ، فالتعليم المدرسى كان رديئاً جداً رغم أننى استفدت منه .. لكن لم يكن هناك الفن

لم يكن هناك المنهج الذى يسمح للأساتذة بأن تكتشف فى كل فرد موهبته الخاصة مثلما فعلت مع طلبتى فى فرنسا ' أنا كنت أبحث مع كل طالب عن شىء ما خاص به .. الفن لا يعلم لكن المنهج هو الذى يعلم ، منهج البحث عن كل فرد فينا ، نحن نعيش فى مجتمع يملى علينا شروطه و نواهيه و للجميع معاً و هذه كارثة..

فى الفن .. نحن نبحث عن التفرد ..كل شخصية لها تفردها .. و كل شخصية لها مناطق جمالها .. و كل شخصية لو تزوجت مناطق جمالها لعاشت الحياة الجميلة ولا نستطيع

أن نخدع الحياة أبداً بأننا سنفعل هذا الآن ثم سننتزوج أنفسنا فيما بعد هذا ليس حقيقياً أبداً ..

بعد تخرجه فى كلية الفنون الجميلة بدأت الحيرة .. و بدأ يسأل ذاته سؤالاً مُلحاً .. أين الفن ؟ ، و قد كتب الفنان عن حركتين تشكيليتين مصريتين آنذاك ..الأولى تدعى المعاصرة حيث تقوم بالنقل عن المدارس الغربية ، و كان رافضاً لها. أما الحركة الثانية فقد كانت تستلهم فنوننا القديمة وبالأخص الفن الشعبى . كان الفنان عدلى رزق الله يعتقد أنه من أتباع الحركة التشكيلية الثانية .. لكنه وجد طريقاً ثالثاً ، وعن ذلك الطريق و كيف وصل إليه روى قائلاً :

أولاً اكتشفت أن النقل أياً كان من عمل سابق موجود فى مصر أو نعتبره تراثنا العربى مثلاً أو المصرى أو النقل عن منجز غربى كلاهما ناقل ، و النقل أحد خطايا الفن الكبرى ، فعندما ينقل الفنان فهو يقتل الفن ، هى جريمة قتل للفن ، لأنها جريمة فصل شكل عن مضمون ، و لا يمكن فصل الشكل عن المضمون.. المشربية مثلاً كانت تجيب على حياة تلك السيدة الممتلئة القوام التى تبث السمن لزوجها فى صوانى البسبوسة ، و كان الرجل يأكل هذه الصينية بعد أكلة

ضخمة .. بطة كاملة محشية بالفريك مثلاً ثم يدخل الشيشة ويحتفظ بزوجته داخل المشربية .. المشربية الآن لا تصلح لأننا الآن نعيش حياة أخرى و انتزاعها من قوامهافى المبنى القديم هو انتزاع شكلى وقتل للحقيقة ، و نفس الشىء ينطبق على من يأخذ من منجز غربى فهو خارج إطار الفن ، أنا أعتقد فى التعبير عن ذات الفنان الداخلية الحقيقية التى تكونت على مستوى تاريخ الفن كله .. بيتهوفن أصبح جزءا من مكونى الحقيقى .. أنا أسمع أحياناً موسيقاه دون أن أضع الإسطوانة بالتأكيد هو جزء من نسيجى الآن ، وبالتأكيد الطبيعة التى أحيا فيها هى جزء من نسيجى.. عندما ينتشرهذا الأبيض فى لوحاتى فهو موجود لأنى ابن صعيد مصر .. ابن ذلك الضوء الباهر الذى نحيا فيه الآن .

و أعلق هنا متسائلة عما إذا ما كان ذلك ما أسماه بالصدق الفنى كما جاء فى سيرته الذاتية فأجابنى :

نعم ..الصدق الفنى هو مجمل كل هذه الأشياء مع بعض ، الصدق الفنى من وجهة نظرى هو أن يتكون دم الفنان من كل ما أنجز فى تاريخ الفن ، عندما أذهب لأرى التأثيريين الفرنسيين هذا جزء ، عندما أرى معبد الأقصر هو جزء ،

عندما أرى و أرى .. كل هذه الأجـزاء تدخل فـى تكوين الدم لكن الدم جديد ... لا تستطيعى أن تضعى يدك و تقولى أين هذا الشىء ..هو مكون داخلى .. و يبـقى علينا إثارة أسئلة حياتنا و لكن أن نثير السؤال بصدق أين أنا الآن .و ماذا أريد ؟

واجه الفنان عدة متاعب فى مجلة الأطفال التى كان يرسم بها قبل سفره إلى باريس ، كان من بينها رسمه لشخصية تحمل ملامح عربية ، و قد علق على هذه الواقعة قائلاً :

مصادفة جميلة جداً كنت أتحدث مع شاب يرينى بعض أعماله .و عندما قلت له لماذا لا تذهب لمجلة كذا؟. و لن أذكر الاسم قال إنهم ينقلون .. ضحكت فى داخلى لأن هذا كان واقعى عام ١٩٦١ .. أربعون عاماً مروا .. يالها من مأساة ولا إجابة أكثر من ذلك..

اتخذ الفنان عدلى رزق الله قراراً بالرحيل إلى باريس " كان الباعث على الرحيل ، الدراسة ، المعرفة و البحث عن إجابة لأسئلة كثيرة مثارة تريد أجوبة ." الوصول إلى البداية ص ٩٧ .

و عن أهم تلك الأسئلة التى أثيرت فى خاطره قال :

الهوية . .. كنا قد قتلنا و حاولنا أن نحيا بعد القتل كانت قارعة ٦٧ قد دقت الرؤوس و الأعناق معاً ، فكان علينا إما أن نقع فى هوى و غواية اليـأس ، و إمـا أن نبـحث .. و كـان الرحيل هو البـحث عن تكوين جديد قلت سـأتركه فى القاهرة وأذهب وحدى .. أترك عدلى رزق الله و أذهب لأولد من جديد ..ذهبت و لم أبحث عن أى مـصرى أو من له صلة بمصـر فى الخـارج ، حـاولت أن ألقى بنفسى فى اليم عـارياً بالكامل ، وهربت ممن كانوا يعرفون عنى أو يعرفون عن عالمى شيئاُ ما .. هربت جـسـدياً .. و تعلمت و رأيت ، تعلمت من الرؤية ، لأن عصر النهضة و ما تلاه من عصور هو موجود بالخارج وليس متـاحـاً لى فى القـاهرة ، و شربت الفن كما يجب أن يكون ، وقد قلت اتسق تاريخ الفن فى داخلى ، و احتككت بعالم قدر .. سـأقـول كلمة بتـحفظ شديد .. مـوهبتى منذ اللقاء الأول ، ولكن هل كان على أن أبقى هناك ؟ أنا خبز المائدة فى مصر .. أنا قلت هذا يوم عودتى .. أنا خبز المائدة فى مصر حتى لو أنكرونى لكننى ليمونة بنزاهير مضافة إلى مائدة متخمة بالطعـام فى باريس ، باريس لديهـا العـشـرات من رسـامى الأطفال ، و لديها عشرات المعلمين ولكن فى مصـر أنا أكون

فى بلدى .. و أعلق بدورى إذا ما كان قد شعر بأن مصر بحاجة إليه .. فعاجلنى قائلاً :

أنا بحاجة إلى وطنى .. أكون فى بلدى ، أخذ جوائز وأخذ أموالا فى العالم ، لكن أكون فى بلدى ..لحم كتافى تكون ممن كتبوا الكلمة فى مصر ، ممن رسموا اللوحة فى مصر ، لحم جسدى تكون داخل رحم تلك الأم .. أمى المصرية.. لمصر نوعان من الأبناء .. نوع يحلبها " لحد ما تجيب دم لحد ما تقطع اللبن " و نوع بعدما يصيبه بعض المال يشترى لأمه شالاً للرأس و تخجل و تقول له يا ولدى ما عِندى كل حاجة ولكن قلبها يزغرد ..

فى باريس ارتاد الفنان معارض فنية عدة .. و قد كان كما بدا لى أثناء مطالعتى لسيرته الذاتية دائم التحليل والتدقيق فيما يشاهد من معارض و كأنه يضع الفن و الفكر الغربى فى بؤرة الدراسة .. و بسؤاله عن ما إذا كان قد انبهر بما رأى هناك أجاب :

كلمة انبهار تصدق فى كل عمل فنى حقيقى ..أنا انبهرت و لا أستطيع أن أدعى أننى لم أنبهر .. و لن أدعى أننى لا أبحث الآن عن رحلة أتمنى أن تكون سنوية ، أنا أقوم بها كل

عامين لكى أرى الجديد ، و لكى أرى التاريخ ، و لكننى أنبهر فى مصر أيضاً ..عندما أقرأ مثلاً لكاتبنا بدر الديب .. فالانبهار قاسم مشترك ' أنا أحيا فى مصر مع أعمال أرى أنها تثرى حياتى مثل كتاب (أجازة تفرغ) هذا أحد أجمل الكتب التى صدرت باللغة العربية على مدى قرن لكاتبنا بدر الديب الذى لايبتذل كتابته أبداً ، هذا الكتاب أنا قمت بكتابة دراسة عنه فى ست عشرة صفحة عن موقفه من الفن فى هذا الكتاب ، بطل هذه الرواية فنان تشكيلى .. نحات .. الكتاب ملىء بفهم عميق للفن .. يحتاج إلى إعادة قراءة .. فعندنا فى مصر كنوز حقيقية .. و هذا لا يغنينى أيضاً عن كتابات الغرب .. فمجموع كل ذلك هو الحياة .. هل انبهرت بالغرب ؟ انبهرت! مثلما انبهرت بالمبدعين المصريين و العرب أيضاً ..فهذه أجنحة للتحليق .

يطرح الفنان عدلى رزق الله عبر سيرته الذاتية تساؤلاً عن الفن " هل الفن هو تعبير (عن) ؟! أم الفن هو تعبير (فى) ؟!" ليصل إلى أن الفن " تعبير (فى) و ليس تعبيراً (عن) " الوصول إلى البداية ص ١٠١

و بسؤاله عن ما الذى يعنيه بذلك أجاب قائلاً :

هذا مـذهب فنى يصل إلى حـد العـقـيـدة لدى و لدى بدر الديب مثلاً ' أنا عندما كتبت دراسة عن (أجازة تفرغ) كنت استخرج منها تعاليم مباشرة لهذا الكلام .. الفن (فى) عندما يصـبح فى الفن الصـدق الكامل كى يخـرج إلى الوجـود .. ولادة .. التـعبـيـر (عن) كـأن هناك مـوضـوعـا يعـبر عنه مُلزم للفنان منذ البداية ، هذا يصلح لرسم الكاريكاتير أو الرسـوم التوضـيحية أو الملصق لكن اللوحة لا.. اللوحـة جسـد يتخلق .. يكتـشف به الفنان أشـيـاء و يكشـف به أشـيـاء .. و يعـرف ويصـبح طريقـاً للمـعـرفـة ، هذا الفن (فى) هو حـيـاة و ليس تعاليم وليس رسالة تؤدى إلى .. هناك أشياء أخرى تقوم بهذا الدور .. الملصق كـفن تشكيلى يقـوم بهـذا الدور .. الحكاية للأطفال تقوم بهذا الدور .. الكاريكاتير يقوم بهذا الدور إنما اللوحـة .. جنين يكبـر يفـاجىء حـتـى صـاحـبـه ، حـتـى الخـامـة عندما يعشقها الفنان تعطيه ما لم يملك من قبل .

بعد عـودة الفنان إلى مـصـر اتخذ قـراراً بالتـفـرغ للفن .. وهو قرار يصعب على الفنان التشكيلى اتخاذه ، فعلى الفنان التـشكيلى أن يعـمل فى التـدريس أو فـى الرسـم الصـحـفـى أو ربما موظفاً بوزارة الثقافة كى يضمن دخلاً ثابتاً له و لأسرته،

و ما تبقى لديه من الوقت هو لفنه ، الأمر الذى رفضه الفنان عدلى رزق الله و عن ذلك قال:

صعيدى .. الصعايدة ليس لهم حل .. الصعيدى يجود عندما تكون الطبيعة قاسية جداً .. هذه واحدة ..منذ حكاية جدتهم وأنا أصبحت فى أحسن حالاتى عندما يحاصرنى الموقف بشكل كبير ، قد لا أدعى حينما أقول أننى أبحث عن المواقف الصعبة ، عندما تحديت الزمن و قررت أن أتفرغ كفنان تشكيلى بلوحاتى الصعبة الاقتناء التى لا تزين بيوت أحد ، و التى لا تتملق حساً تزيينياً ، و التى لاتتملق حساً سياحياً ، و الحقيقية التى عندما يراها متلقى حقيقى يعشقها عشقاً .. هناك عشرات فقط عشقوا أعمالى إلى حد الاقتناء .. بإيمانى تفرغت و بدون التفرغ لن يصبح هناك فنان تشكيلى الآن ، فى بديات القرن نعم ..لكن الآن دون تفرغ .. لا يمكن .. هذا التفرغ ضرورة.

كتب الفنان عدلى رزق الله فى سيرته الذاتية (الوصول إلى البداية فى الفن و الحياة) عن كرهه للموقف

الأحادى فى الفن و الحياة لأن الأحادية تقتل على حد تعبيره ، و قد شرح ذلك قائلاً :

الأبيض و الأسود بينهما عشرات الدرجات ، أنا أريد الأبيض لا ألغيه ، و أريد الأسود لا ألغيه .. سأقول لك مقولة أخيراً داعبتني توضح هذا الأمر ببساطة شديدة جداً .. علمونا أن المتفائل يقول: إن نصف الكوب مليىء ، و علمونا أن المتشائم يقول: إن نصف الكوب فارغ ، أنا رأيي أن كلاهما أحادي ، الحقيقة أن نصف الكوب مليىء و نصف فارغ معاً وهذا ما يجب أن يقال .. فعندما نقول ذلك نستطيع أن نتعامل بشكل أفضل.. نستطيع أن نرى الإيجابي و السلبي أيضاً .. لا ننكره لأنه موجود .. و إذا حدث ذلك سنقرأ الحياة بشكل

أخر ، و سنعرف كيف نتعامل مع الأخر بشكل أفضل لأن الأخر ليس أسود فقط و ليس أبيض فقط .

هو مجموعة أشياء على أن أخذ ما أُفضل أو أتعامل مع الجانب الذى يستطيع أن يعطينى أو يأخذ منى ، و الجانب الآخر عليّ أن أعرفه حتى أتحاشاه مثلاً .. هذا التركيب فى كل شيء عليّ ألا أنكره .. و إلا أصبح صاحب إلغاء للأخر أو صاحب إدانة و انتهت الحياة ..

الألوان المائية هى عشق الفنان التشكيلى عدلى رزق الله ، و عن السبب وراء اختياره لهذه الخامة المرهفة و المدهشة فى آن واحد قال :

هل اخترتها أم اختارتنى من يستطع أن يقول عن حبيبه أو حبيبته من بدأ ؟! لا نستطيع الإجابة أبدا .. هى اختارتنى و أنا اخترتها تلك المعشوقة ، و حتى الآن هى تعطينى ، وعلى مستوى تاريخ الفن لم تعط أحداً كما أعطتنى ، و أنا سأعطيه للأخرين .. أسجل كل ما اكتشفته فى تلك الخامة ، أعلمه لبعض الناس الآن ، لكننى سأسجله في شرائط حتى يصبح فى متناول الجميع ' لأنه يجب أن يكون هكذا .. هى أعطت و علىّ أن أعطي ..

كتب الفنان عدلى رزق الله فى سيرته الذاتية عن العديد من الأدباء الذين جمعته و إياهم علاقة صداقة و ود ، فالفنان عاشق للأدب أيضاً ، و بسؤاله عن العلاقة بين الأدب و الفن التشكيلى أجاب :

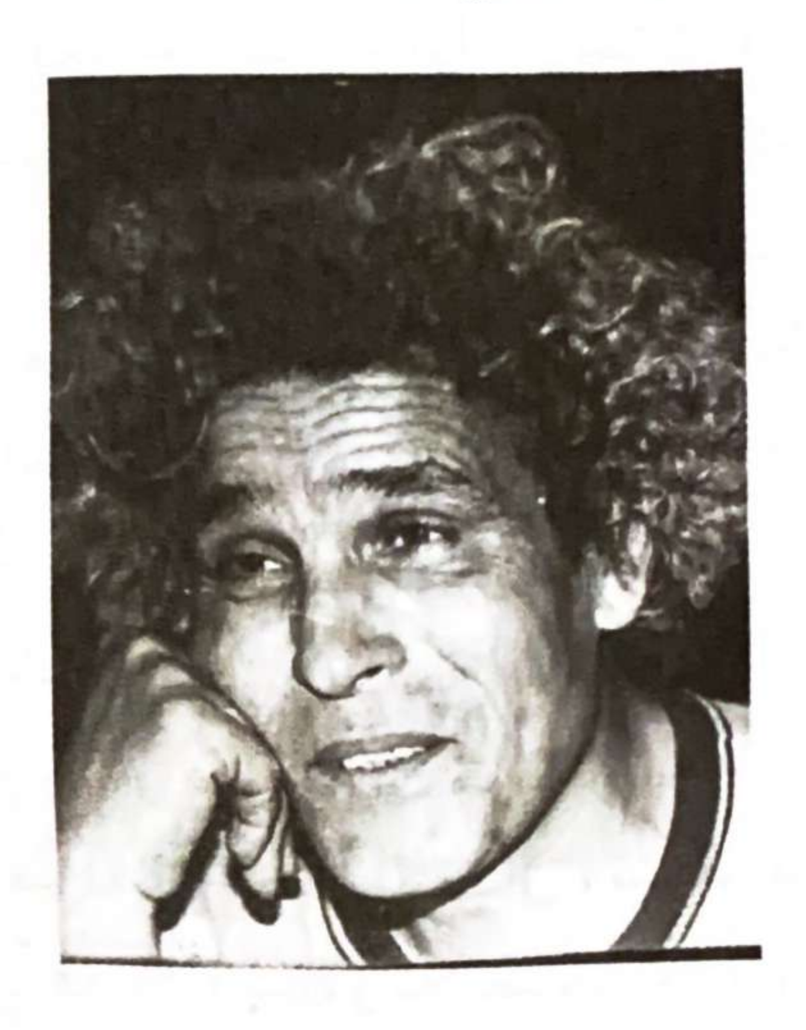
هل هى علاقة ام هناك زواج حقيقى .. من أين يأتى الفن و إلى أين يذهب ؟! أنا اعتقد أن البئر واحد .. أو السماء واحدة .. أو الطبيعة واحدة .. من يستطيع أن يحيا حياة عادية بلا فن .. لأننا نعيش الآن بلا فن ، و لأننا نطلق كلمة فن على أشياء أخرى غير الفن الحقيقى ، يصاب الإنسان بالاكتئاب ، و يصاب بذلك الصرع الموجود فى شوارع

القاهرة الآن .. تلك الآلة الجهنمية من الصراخ و الضجيج والتلوث البصرى ، و السمعى و تلوث حاسة الشم التى نحياها.. كل هذا نتيجة عدم وجود الفن ، و لكى تستقيم الحياة على الإنسان أن يسمع و يرى و يفكر .. يسمع الأصوات التى تصل إلى حد الموسيقى ، و يرى الألوان والنور التى تصل إلى حد اللوحة و التمثال ، و يفكر بالعقل .. اقرأ... ألم تكن تلك أول كلمة ...، و فى البدء كانت الكلمة ، إذا كان مكون الإنسان العادى لكى يستقيم أن يحيا على هذه الأرجل .. فما بالك بالفنان .

و بذلك يكون لقائى بالفنان التشكيلى الكبير عدلى رزق الله قد وصل إلى البداية .. بداية صداقة .. و بداية معارف جديدة تفتح المزيد من آفاق التعلم و عشق الفن و الحياة .

محمد عفيفي مطر

أوائل زيارات الدهشة



"كلما حط ليسترح نفرته الدهشة بزياراتها المباغتة وانفتحت مسالك الأفق أمام المعرفة المرّة و الغربة الفسيحة "

إنها دهشة الاكتشافات الأولى بحلوها و مرها ، بما تحمله من رهبة و ترقب ، و إعادة تشكيل لمنظومة قيمنا ، و رؤيتنا للحياة و الناس ، و باختلاف زيارات الدهشة و الكيفية التى يتلقى بها كل فرد منا هذه الزيارات و تفاعله معها يتحدد الكيان الفريد الخاص بكل إنسان . هذه الزيارات و إن اختلفت أو تشابهت أو أدت فى النهاية إلى اكتشافات متقاربة عن الحياة ، هى مدخلنا إلى أنفسنا 'هى المحك الرئيسى للتجارب و الخبرات . و قد كان مدخلى إلى عالم الشاعر المصرى الكبير محمد عفيفى مطر مزيجاً من هذه الزيارات المدهشة من خلال سيرته الذاتية " أوائل زيارات الدهشة .. هوامش التكوين " و هى زيارات مربكة ، مفعمة بالمشاعر والتأملات ، مؤلمة فى بعض الأحيان ، تشعر معها و كأن اتصالاً روحياً قد نشأ بينك و بين صاحبها ، و هى تجعل من يقرأها يتساءل عن زياراته الخاصة ليكتمل جزء من إدراكنا لأنفسنا و الحياة .

كنت بانتظار شاعرنا أمام مبنى اتحاد الإذاعة والتليفزيون

كما اتفقنا عبر الهاتف ، و وسط جموع الناس استطعت تمييزه ، فقد لاح لى من بعيد ذلك الجسد الطويل النحيل الذى يحمل نفساً صلبة ، تستمد صلابتها من رهافة مشاعرها الإنسانية . تبادلنا التحية و مضينا معاً إلى استديو٢٤ ، استديوالتسجيلات بإذاعة صوت العرب ، لأبدأ الحديث فى محاولة لسبر أغوار ذلك القلب المعلق " بين مخالب طائر محموم بالسياحات فى الأعالى ' علوه فزع و رعب ، وانطلاقاته كارثة احتمالات ، و مناوشاته لعب فوضوى بن الأمل و الموت ، وكلما حط ليستريح نفرته الدهشة بزياراتها المباغتة ، و انفتحت مسالك الأفق أمام المعرفة المرة و الغربة الفسيحة " (أوائل زيارات الدهشة ص ٩) . و كانت البداية بسؤاله عن اختياره لهذا العنوان الفريد فأجاب : هذا الكتاب كان مقترحاً من بعض الأصدقاء .. أن أكتب عن سيرتى الذاتية .. فأنا اعترضت فى ذلك الوقت و قلت .. أنا لم أفتح عكا و لم أسترد القدس و لم أفعل شيئاً .. فأى سيرة .. ثم أغرانى صديق بأن أكتب مهما كانت الظروف .. أنا أعرف طبعاً العديد من الشعراء كتبوا سيرتهم مع الشعر .. قرأت بعضها أو معظمها و لكننى وجدت هذه السير قناعاً يحاول

الشاعر من ورائه أن يدعى إدعاءات عريضة لا تتوافق مع شعره الذى أعرفه .. فكلهم أصحاب رؤى كبيرة ، و كلهم أصحاب معاناة هائلة من أجل الكتابة ، و كلهم أصحاب قوى خارقة ، و كلهم مناضل إلى أخره .. فأنا لا أحب الادعاء ، ولا أحب أن أبدو على غير حقيقتى ، و أنا رجل فلاح .. أحب أن أعيش فى بساطة .. أن أكون عريان الضمير .. عريان العقل .. و عريان القلب أمام قارئي .. أو أمام أصدقائى .. فأنا رفضت كتابة السيرة الشعرية بهذه الطريقة .. ثم بدا لى قبل الشعر ما الذى يصنع الشاعر ؟ أو ما الذى صنعنى أنا بالتحديد .. لأن لكل شاعر ظروفه و مناهج عمله إلى أخره .. فاخترت الهوامش .. هوامش تكونى كشاعر و كإنسان .. فوجدت أن الدهشة أولاً هى المنبع الأساسى للشعر .. وللفلسفة .. و هذا حتى كلام أرسطو .. أن الدهشة هى التى تثير إما التساؤل العقلى .. و إما الإبداع الفنى .. فأسميتها أوائل زيارات الدهشة .. لم أكن أبحث عنها .. و إنما كانت هذه الدهشة تصلنى أو تصيبنى كرزق من الأرزاق .

أوائل زيارات الدهشة أشبه بمقطوعات أو حكايات قصيرة من مرحلة الطفولة و الشباب للشاعر الكبير محمد عفيفى

مطر ، بها شىء من الرمز ، و مكتوبة بلغة نثرية ، و لكنها تحمل الكثير من رهافة الشعر و موسيقاه ، و ربما كان لهذا الشكل الذى كتبت به هذه الزيارات دور فى جعل القارىء ينساب مع النص المكتوب ' و يعيش مع الشاعر جميع الأحاسيس و الأفكار ' فقد عشت معه فى قريته «رملة الأنجب» ' و هى قرية تابعة لمركز أشمون بمحافظة المنوفية ' عشت داخل أفكاره ، و شعرت بالألم الذى أصابه فى نواح عدة وعن هذا الشكل الذى اختار أن يكتب به قال :

فى الحقيقة لا أدعى إذا قلت أنه شكل غير مسبوق .. وكلمة زيارات فى حد ذاتها هى التى ستعطى هذا الشكل منهجه أو هذه الكتابة منهجها .. هى زيارات و ليست إقامات ' هى زيارة خاطفة .. مدهشة .. تُحرك العقل .. و تُحرك القلب و الوجدان ثم تترك آثارها فى النفس بعد ذلك ليضاف إليه أثر آخر و هكذا .. فهى زيارات و نقاط و لحظات خاطفة من لحظات التوحد مع العالم .. أو مع البشر .. أو الانتباه إلى الموسيقى أو الشعر أو الانتباهات الأولى لكتب.. لمعلمين.

و بدأت الانتقال معه بين الزيارات المختلفة . تحت عنوان (ثلج الجيم المعطّشة) يصف شاعرنا ما أحس به عندما نظر

إليه ولد أزرق العينين أشقر ' و أخذ يسخر من لهجته الريفية " تقبضت يد من الثلج حول جسدى و اتسعت خروق ملابسى المهترئة لأصابع الهواء المثلج " (أوائل زيارات الدهشة ص١٣) . و بسؤاله عن السبب وراء ذلك الشعور أجاب :

في الحقيقة كان ذلك فى أوائل دخولى المدرسة الابتدائية فى منوف .. التعليم زمان كان مدرسة إلزامى ثم مدرسة ابتدائية ثم المدرسة الثانوية .. أنا طبعاً من أسرة فقيرة .. مهلهل الثياب .. قد تكون مثلاً مسألة الجوع هذه كأنها خاصية من خصائص وجودى .. حينما نظر إلىّ هذا الولد الذى أصبح فيما بعد صديقاً لى .. و كان أشقر و عيناه زرقاوين .. وضحك حينما قلت كلمة فيها حرف الجيم معطشة .. فأحسست أننى آخر .. و أن الدنيا متراتبة تراتباً طبقياً ولغوياً .. فأحسست أو انتقلت من دفء العلاقة الأخوية أو دفء التلمذة المشتركة إلى أخره إلى اغتراب شديد .. وأحسست أن يداً من الثلج تتقبض جسدى أعلق بدورى أنها كانت دهشة الاختلاف فعاجلنى قائلاً : دهشة الاختلاف ودهشة أن لى لغة مختلفة .. و أن اللغة أيضاً كائن طبقى .. وكائن يميز البشر بعضهم عن بعض .. أنا فلاح و هو ابن

مدينة .. و أظن أنه حتى يومها "جبت سيرة " كلمة الجاموسة فقلت الجاموسة فضحك .

وتحت عنوان (انشقاق قلب) كتب الشاعر محمد عفيفى مطر عن المرة الأولى التى أخذ يقلب فيها أوراق صفحات كتاب وجده على رف فى بيت خاله ' و لم يكن يعرف القراءة والكتابة بعد ' حيث صدم لدى وقوع عينيه على صورة بالكتاب لفتاة صغيرة تبكى مهلهلة الثياب تحت نعش يحمله أربعة رجال ' و عن مدى تأثره بتلك الصورة قال : الحقيقة أن أمى رحمها الله فقدت بالموت سبعة من بنيها .. كان قبلى اثنان قد ماتا .. و كانت دائمة الحكى عن الولدين اللذين ماتا قبلى .. كانت تحكى عن عيونهما .. عن ذكائهما المبكر إلى أخر ما تحكيه الأم .. فحينما رأيت الصورة و لا أعلم أى كتاب كان .. لأنى رأيته عند أحد أقربائى .. عند خالى ولم أكن أعرف القراءة و الكتابة وقتها .. فرأيت هذه الصورة فانخلع قلبى لرؤية الموت و رؤية البنت الصغيرة التى تبكى تحت النعش الذى يحمله أربعة رجال .. بالطبع أنا كغيرى من الفلاحين متصور أن المكتوب حقيقة .. و أن الكتابة أمر لايمكن أن يلحق به كذب .. أو التزيف أو شىء من هذا القبيل

.. فهذه إذن بنت حقيقية .. و الميت فى النعش تصورت أنه أمها .. والبنت تبكى فكأننى انا الذى فقد أمه .. و كأننى أنا الذى أبكى .. فعلاً انشقت نفسى انشقاقاً عجيباً .. وأحسست بلوعة.. مثل هذه المشاعر ربما تأتى لأطفال كثيرين لرؤيتهم لشيء من هذا القبيل .. لكن هذا الوجود الذى يحفه الموت دائماً .. إخوة صغار ماتوا قبلى .. و إخوة صغار ماتوا بعدى .. وهذه الصورة .. فهذا الاحتكاك المباشر بالموت والفقد أحسست به فى تلك اللحظة . و اتساءل إذا ما كانت تلك اللحظة هى لحظة اكتشاف أو إدراك معنى الموت فأجابنى قائلاً : الموت و الألم عند الآخرين و ليس عندى .. و كأن الألم اشتراك إنسانى عام .. فأدمعت عيناى يومها.

عندما نشر شاعرنا قصيدته النثرية الأولى اعتقد أنه سيصبح موضع فخر و تقدير ' و سيفرح الأهل

و الأصدقاء ' و لكن من أولى زيارات الدهشة أن ذلك لم يحدث ' و قد استرجع الشاعر معى هذه التجربة التى كتب عنها فى زياراته تحت عنوان (ابتلاء) و حدثنى عن تأثيرها فى حياته قائلاً :

حين نشرت لأول مرة فى مجلة معترف بها .. فى نفس

العدد يكتب طه حسين و توفيق الحكيم و كبار المفكرين.. وهى مجلةالرسالة الجديدة عام ,١٩٥٤. فأنا متصور أن هذا شيء سيفرح الدنيا كلها.و أنا عندى إحساس قوى جدا بالبنوة للمكان .. يعنى أنا ابن قرية بحالها .." مش بس " ابن القرية .. ابن طيرها و شجرها و حيوانها .. أخوة وشيجة فى غاية العنف و القوة تربطنى بالكائنات كلها فى ذلك الوقت فى القرية التى لم أعشق مكانا مثلها و لم أكره البقاء فى مكان فى ذلك الزمان مثلها .. فتخيلت أن الناس كلها ستفرح أن أبى سيحس بالعظمة و الكبرياء أن له ولد دخل إلى مجال الكتابة إلى آخره.. علاوة على قداسة المكتوب عندنا كفلاحين .و لكننى قوبلت بهجوم ضارى و ظهرت لى سخائم النفوس وكراهية التميز.. فأصبحت كارثة بالنسبة لى .. كنت اتوقع النقيض .. و لذلك أنا أكتب بعض الأشياء التى لم أكتبها فى إطار هذا الكتاب جتى يضاف إلى الطبعة الثانية بعنوان مسحوق الذاكرة.. فى دقائق صغيرة كأنها الطحين المسحوق لكنها دالة و معبرة و مؤثرة فى الحياة الإنسانية و الحياة الاجتماعية التى عشتها فى ذلك الزمن .. و هى فكرة بعنوان القنافذ.. نحن من بيئة فقيرة .. كلنا يخرج فى الصباح إلى

المحطة حتى نسافر .. من معه رغيف و من ليس معه .. ملابسنا رثة .. أهالينا فقراء و لا يعرفون ما يتكلفه التلميذ .. بمعنى أنه يحتاج لأن يأكل و يشرب إلى آخره .. كان ذلك لا يهمهم و إن أهمّهم فإنهم لا يملكون إلا القليل .. و لكن كل هذا لم يصنع تراحما و تعاطفا و تماسكا و تلاحما بين الصغار و كأنهم مجموعة من القنافذ المستنفرة الشوك .. الشرسة الهجوم و الدفاع .. لا تسمع اسم ولد صريح .. كلها إما أسماء صفات جسدية عريجة .. هردل .. أبو طويلة إلى آخره .. أو بأسماء الأمهات " ودى عندنا عيب" أن تقول يا بن فلانة .. او أسماء مهن .. يا ابن الصرماتى مثلا .. شراسة عجيبة الشكل بالإضافة إلى تلك الخلافات العائلية فى القرى و الثارات المعهودة .. فكانت حالة من الشراسة فزعت منها فزعا شديدا .. وأنا كثيرا ما اقول جملة يتصور من يسمعها أنها عشوائية ..جملة ان الشعر حافظ على إنسانيتى .. الشعر هو الذى يهبنى انتمائى للبشرية و للإنسان .. و كان هذا النشر الأول كارثة بالنسبة إلى و قال الناس لأبى " ابنك مش نافع " و لابد أن تحاصره و تحرص على ألا يقرأ حتى يتفرغ للدراسة.. فنشأت معركة هائلة مكتوبة فى الكتاب حول

علاقتى بأبى و الأسرة .. و الحقيقة حينما أتذكر هذه الامور أحس بالأسى و الإشفاق الشديد على أى ولد موهوب فى قرية فقيرة بعيدة و من حوله لا يحبون هذا التميز .. علاوة على ذلك الشىء الرهيب الذى استنزف دم المصريين من الحشرات .. البراغيث و البق و الناموس إلى آخره .. نحن شعراء الشاعر فينا معجزة بحد ذاته أن يخرج من هذه البيئة وهذه الظروف .. و أن يحتمل .. و أن يصبر .. و أن يتملكه عناد التحقق .. و أن يبحث لنفسه عن قراءة و عن تعلم .. و لذلك أنا حتى هذه اللحظة أعيش بروح التلميذ الصغير الذى لديه امتحان فى الغد .. أكتب و أقرأ و كأننى على موعد مع الامتحان الرهيب غدا .. أقرأ و أتعلم و أكتب و كأننى أمام لجنة امتحان رهيبة سوف تعتصرنى .. لذلك أقول لكل ولد موهوب أو لكل ولد يدرك أنه صاحب موهبة ما أن يكون قويا صامدا و معاندا .. و أن يحافظ بالكدح و بالعمل و بالسهر على نفسه و موهبته.. و ألا ينتظر من الدنيا اى شىء على الإطلاق و ألا يجعل موهبته تساوى أى شىء و إنما فقط لذاتها و من أجل الناس.

فى ختام واحدة من هذه الحكايات أو هذه الزيارات كتب

شاعرنا " ألتهم الكتب ' وأشرب مشاهد الدنيا بحرقة المسئول عن كائناتها ' و أنفض القواميس و المعاجم بحثا عن دموع الإنسان و جمرات الغضب وحرائق الحرية فى التاريخ .. من نسمة الهواء حتى الجنون الأسير و الصراخ المكبوح .. فتتسع الدهشة وتتوالد الأسئلة) "أوائل زيارات الدهشة ص١٠١)

و بسؤاله عما إذا كان يبحث عن خلاص له بين طيات الكتب أجابنى قائلا :

لم أكن أبحث عن خلاص لأهرب به من شىء و إنما كنت أبحث عن فرصة.. و عن مسار و طريق لتحققى كصاحب رؤية و كصاحب موهبةهذا الشىء المقدس غير المعروف الذى يسمى الموهبة مسئولية هائلة و كبيرة .. و أنا من المؤمنين أن الكدح لا يضيع على الإطلاق .. الكدح و العمل و العرق هى العناصر الأساسية لوجود الحضارات و الثقافات و البشر وكل شىء .. الرخاوة أو انتظار التدليل من الدنيا .. و انتظار الجزاء السريع .. كل هذا يضيع و يضعف القلب و يطفىء الحماس .

كان شاعرنا مهووسا بالشعر ولكنه كان يعتقد أن كتابة

الشعر أمر ممكن لكل البشر عداه ' بل إنه أمر مستحيل بالنسبة إليه . وفى القصة ذاتها التى باح للقارىء فيها بهواجسه إزاء كتابة الشعر _ وهى تحمل عنوان افتتاحية الحمى المقدسة _ حدثنا عن أستاذ اللغة العربية الذى شجعه و أعطاه دفعة وأملا فى أنه موهوب و عليه أن يحافظ على موهبته . و فى ذلك اليوم عاد الشاعر إلى منزله وغرق فى نوم أشبه بالموت على حد تعبيره فكان ذلك هو " النوم الأخير قبل سهر الدهر " (أوائل زيارات الدهشة ص٤٦) . و عن ذلك حدثنى قائلا :

أذكر بالتحديد هذا الأستاذ و أرجو أن يكون الآن يسمعنى أو أن يسمعنى أحد ممن يعرفونه فى قريته و هو الأستاذ محمد الشناوى .. كان مدرس اللغة العربية و أحد مؤلفى كتب النحو و اللغة العربية فى التعليم الثانوى.وأنا وصفته فى الكتاب كما كان بشفافية شخصيته و بزرقة عينيه .. كنت قد دخلت الفصل قبل أن يأتى زملائى و كنت فى ذلك الوقت أدرس سنة تكميلية بعد الحصول على شهادة التوجيهية وهى شهادة الثانوية العامة الآن حتى أصبح مدرسا .. أنا كتبت فى الكتاب ما أحدثه ذلك فىّ ربما الى

الآن هذا الاختصار لمسيرتى التعليمية .. هذا القتل الرمزى الذى حرمنى من الدخول إلى الجامعة مع زملائى .. و الذى جعلنى بعد ذلك أصر على إكمال تعليمى و الانتهاء من دراسة الفلسفة.. وقفت ووجدت نفسى فى حالة نفسية و عقلية وروحية غريبة كأننى أتلقى عبارات و لغة بشخصيتى كاملة فى حالة من الاندماج و حالة مما نسميه وحدة الوجود .. كتبت عددا من السطور ثم جلست بين زملائى حين دخلوا و جاء الأستاذ محمد الشناوى و قرأ المكتوب على السبورة فسأل من كتب هذا ؟ خفت وخجلت من أن أقول أنا من كتب ..

فمحى ما هو مكتوب و أنهى الدرس .. ثم خرجت إليه وقلت له أنا من كتب هذه السطور فقال لى كما ذكرت فى الكتاب أنت موهوب إياك أن تضيع منك هذه الموهبة و أن تضيع نفسك فى هذه المهنة بالتحديد مهنة التدريس فى المدارس الابتدائية .. فكنت مستسلما تماما و أعرف من نفسى أننى لا أنام عن تحقيق ما أتصور أنه الحق و الخير والجمال .. ولا أنام عن تصور أننى أستطيع فعل شىء يجعلنى أفضل و يجعل الحياة من حولى أفضل .. و فعلا .. بالطبع كنت قد عقدت العزم قبل ذلك أن أتم تعليمى و أن

اقرأ .. كنت أعرف طريقى حقيقة منذ سن العشرين .. أعرف ماذا سأفعل .. و ليست المشكلة فى أن نعرف ماذا سنفعل المشكلة أن يكون الحماس و الإرادة و الشخصية بكاملها ذائبة فى هذه الرغبة المقدسة .. و أنا أسميت هذه اللحظة التى كتبت فيها هذه السطور الحمى المقدسة لأننى بالفعل كنت محموما .. و أدركت لحظتها أن هناك شيئا ما أمتلكه .. كنت قبلها قد تصورت أن الشعر مسألة لا قبل لى بها .. كنت أتصور من رؤيتى لصور الشعراء كيتس و بايرون و شيلى ومحمود حسن إسماعيل أن الشعراء يتميزون بجمال الوجه والشخصية .. و تصورت أن هناك علاقة جسدية بين الموهبة والشاعر .. و لأننى بحمد الله لا اتميز بهذه الوسامة تصورت أن الشعر ليس طريقى .. لكن فى هذا اليوم أحسست إحساسا قويا بأن علىّ أن أكابد .. أن أكدح .و مازلت أكابد و أكدح حتى هذه اللحظة .

تأمل الشاعر محمد عفيفى مطر القرية و هو يخرج منها صباح السابع من أكتوبر ١٩٥٦ متوجها إلى مديرية الفؤادية _ الاسم السابق لمحافظة كفر الشيخ _ ليتسلم عمله مدرسا هناك ' وو صف تلك اللحظة بأنهاالفاصلة بين زمنين

ووجودين و عن ذلك قال : كانت قريتى قد ضاقت علىّ جدا .. و ضاقت علىّ أخلاق أهلى و أقربائى و أصدقائى .. وأحسست أنه لا يمكن على الإطلاق أن أحقق مصيرى فى هذه القرية و لابد من الخروج .. فكأننى أخرج من زمنين .. زمن هذا الحصار الخانق الضيق .. و الزمن المفتوح على إرادتى الحرة و على قراءاتى الممكنة .. سوف أعمل .. و سوف أستطيع شراء الكتب .. و سوف أستطيع مرة أخرى أن أعود للتعليم و أنتهى من دراسة الفلسفة فى كلية الآداب جامعة عين شمس .. إننى ابتعد لأقترب ، أبتعد عمن أحبهم وعن القرية التى أحبها ..كى أراها مرة أخرى و لأقترب من روحها أكثر فأكثر .

انتهى اللقاء مع الشاعر المصرى الكبير محمد عفيفى مطر .. و لكنه سيظل دائما واحدا من زيارات دهشتى الخاصة.

علاء الديب

وقفة قبل المنحدر



« أريد أن أتماسك .. أن احتفظ بالحس و البصر والبصيرة .. لا أريد أن أقترب كثيراً من حافة المنحدر.»

"ساحة مدينة صغيرة ، بها آلاف البشر ، فيها الميلاد والموت ، الرقص و البكاء ، اليد المقطوعة ، و خد العذراء ، البيت و الحقل و البهلوان و التاجر والمشنوق ، و فى خلفيتها غروب و شروق يحيطان بمشاهد الحياة " (وقفة قبل المنحدر ص ٢٤) .

هذا الوصف للوحة معلقة على جدران حجرة مكتب الأديب الكبير علاء الديب , اللوحة للرسام بيتر بروجل

و يطلق عليها لعب أطفال ، أمعنت النظر فى تفاصيلها الكثيرة المتناثرة ، فى تماماً كما وصفها فى كتابه ، لوحة مليئة بالتفاصيل المتعددة المجزءة ، لقد ارتبط علاء الديب بهذه اللوحة حيث يرى فيها الحياة من حوله .

"أرى لوحة بروجل فى زحام حياتى ، فى يومى الضائع ، فى ضياع حياتى , ضياع لكنه غنى بالملاحم . أقول لنفسى دائماً : كل هذا التفتت يسعى إلى واحد . إنه ميلاد حركة " (وقفة قبل المنحدر ص٢٤) .

نقلت بصرى من لوحة بروجل إلى دفتر أوراقى لأقرأ ما كتبت .. علاء الديب و أوراق وطن تائه ... كان ذلك انطباعى

فور انتهائى من قراءة سيرته الذاتية التى كانت كتابته لها بديلاً للانتحار على حد تعبيره ، فعندما تضيق السبل بالمبدع ، و تتوه المعانى وسط زخم الحياة يكون فنه هو الملاذ الذى يلجأ إليه ليحتمى به من قسوة الواقع المحيط ، و قد كانت الكتابة هى الملاذ الذى لجأ إليه الأديب الكبير علاء الديب فكتب أوراقاً تفيض رقة و حزناً فى آن واحد و تحمل عنوان (وقفة قبل المنحدر .. من أوراق مثقف مصرى) .

تغطى هذه الأوراق مراحل متفرقة فى حياة الكاتب تمتد من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٨٢ ، و للفترة التى كتبت فيها الأوراق دلالة مهمة ، فهى ثلاثون عاماً من عمر مثقف مصرى، و فى حقيقة الأمر هى ثلاثون عاماً من عمر الوطن الذى تغير خلالها شكله و معناه أكثر من مرة ، بطريقة غير مفهومة أو مبررة , بطريقة أفقدت الجميع توازنهم , ليس فى جيل الكاتب فحسب , بل امتد تأثيرها لأجيال متعاقبة . و لقد بعثت هذه الأوراق فى نفسى الكثير من الحيرة و القلق كونى جزءاً من منظومة فقد التوازن تلك , فكان لابد لى من البحث عن إجابات لتساؤلات عدة أثارتها عندى هذه الأوراق التى أخذت أقلب صفحاتها مع الأديب الكبير علاء الديب .

كتب علاء الديب فى بداية أوراقه " هذه أوراق حقيقية , دم

طازج ينزف من جرح جديد . كتابتها كانت بديلاً للانتحار ص ٧ . و قد بدأ حديثنا من فكرة أن فى الكتابة خلاصاً للكاتب و عن ذلك قال :

اعتقد أن الكلمة ليست بها مبالغة .. ففى وقت معين تكون الكتابة هكذا فعلاً .. و الكتابة موجودة مع الكاتب طوال الوقت .. و هو أمر اكتشفه الواحد بعد فترة من ارتباطه الشخصى بالكتابة .. اكتشفت أن الكتابة موجودة مع الكاتب دائماً .. و هو يأكل و هو يشرب و هو يمشى .. يعنى حاجة تشبه التنفس بالنسبة للكاتب .. فى أوقات تغيم فيها الرؤية وتضيع الطرق فيضيق الصدر و لا يبقى شىء غير الورقة والقلم .. يرى الواحد من خلالهما بصيصاً من النور أو الامل أو يرى طريقاً , و الفترة التى كتبت فيها هذه الأوراق كانت فيها الأمور الشخصية و العامة من حولى خانقة جداً .. فكان تفكيرى فى التعبير بهذا القدر من الخصوصية .. و لم يكن مهماً بالنسبة إلىّ أن أفكر فى عمل شكل محدد .. أو أن أفكر فى الأسلوب أو فى الطريقة التى أكتب بها .. كان المهم بالنسبة إلىّ هو الفيض .. أن اترك نفسى للتعبير عن الهم الذى كنت أشعر به .. و اسمحى لى أن أضيف فى هذا الصدد أن السيرة الذاتية حلم صعب جداً بالنسبة للكاتب فى

مجتمعنا العربى .. السيرة الذاتية هى أن يقول الشخص كل شىء بوضوح و صراحة .. هذه الأوراق ، و أنا قصدت استعمال كلمة أوراق و لم أستخدم كلمة سيرة ذاتية .. هى عبارة عن لحظات صدق فى رؤية الحياة .. كل واحدة من اللحظات مشروع لعمل فنى .. ولذلك كان ربطهم ببعضهم البعض نوعاً من التجنى عليهم .. لأن كل مشهد كان يصلح أن يعالج كرواية .. و السيرة الذاتية كما قلت تحتاج إلى قدر كبير جداً من الصراحة .. اعتقد أنه صعب فى الأدب العربى حتى الآن .. هى حلم لأى كاتب و ستظل كذلك .. و هذه الأوراق مهما كان فيها من الصدق إلا أنها تبقى مشاريع صغيرة لأعمال فنية لم تكتمل .

فى الصفحات الأولى لهذه الأوراق تطالعنا هذه الكلمات " ذاكرتى حياتى أدافع عنها وكأنها حريتى .

ذاكرتى : حريتى , عذابى .اتمسك بها و تتمسك بى . مع ذاكرتى ، أحارب ... آخر معاركى و فيها لا أقبل الهزيمة " ص١١ . وبذلك كأن علاء الديب لا يكتب من أجل البوح فقط بل من أجل حفظ ذاكرته ، و عن جعله ذاكرته الإنسانية مساوية للحرية قال :

الذاكرة تعنى الماضى .. تعنى الوجود و الحقيقة و الأصل والتراث .. و الذاكرة بالنسبة للفرد هى وعيه هى أخلاقه هى التى تحدد سلوكه .. الشخص الذى ينسى أو بلا ذاكرة ليس له شخصية فى رأيى و يكون هلامى التكوين .. و الذاكرة بالنسبة للأمة و الشعب لها نفس الأهمية و إن لم يكن أكثر .. و الأمم التى تحتفظ بذاكرتها هى الأمم التى تقدر أن تشيد مستقبلها.

و بسؤاله عن الأشياء التى لا يرغب فى نسيانها أجاب :

كل أخطائى لا ارغب فى نسيانها بل أرغب فى استحضارها .. ليس لتعذيب النفس إنما لتوضيح الرؤية .. ولجلاء خصائص النفس و معرفة نقاط الضعف .. و أنا أعتقد أن من مشاكلى الرئيسية أننى أحاسب نفسى ليل نهار .. فليس عندى حتى فرصة للنسيان .

خلال تصفح هذه الأوراق يستشعرالقارىء وجود علاقة معقدة و مركبة بين المثقف والوطن ، حتى أن صاحب الأوراق يعترف بكونها أوراقا محيرة ومحزنة ، وليس فى اعترافه هذا إلا دليل على مدى توتر العلاقة بين طرفى المعادلة .. المثقف والوطن ، المثقف ذلك الكائن الذى يملك مجسما للمشاعر يجعله يعيش اللحظة مرتين ، وهنا تكمن المشكلة حيث يرى

علاء الديب أن إحساس المثقف " المركب المعقد ، قادر على تكبير الأخطاء و رؤية ماخلفها من معان و دلالات . الأدهى والأمر .. أن أغلب أحلام المثقف مرتبطة بفهم الواقع ، بل وبالعمل على تغييره " ص١٣ . وهو أمر مؤلم و مرهق و عن ذلك كتب " إحساسى بالتخلف غصة فى الحلق . النظر إلى الواقع من حولى يزيد الشعور به احتداما " ص ١٣ و عن التخلف الذى يصارعه حدثنى قائلا :

أصارع التخلف فى واقعنا و سلوكنا وعلاقاتنا .. التخلف هو الذى يصنع غمامة او افق ضيق نتحرك فيه .. التخلف فى نوع العلاقات المفروضة علينا و نوع التربية التى يلقاها أطفالنا فى البيوت .. و للتخلص منه علينا أولا إدراك حجمه .. أن يسعى كل واحد منا لرؤية أفق حياته "أد إيه هو السقف بتاعه منخفض " التخلف أن ينحصر الإنسان فى المكان الموجود فيه و لا يقدر على رؤية ماهو أبعد من أمامه .. أن تضطره الظروف أن يعيش فى اللحظة .. التخلف الذى اصارعه هو الضغط الهائل الذى يقع على الافراد فى قضاء حاجاتهم العادية .. من حق الإنسان فى العشرين و الواحد والعشرين أن تكون حاجاته الأساسية مقضية .. و أن يكون متاح له التفكير الحر فى أفق مفتوح .. و أنا بالطبع لا أريد

ان أكون متشائما أو أن أظهر بمظهر الشخص الذى يندب ولكن لننظر للشاب فى العشرينات من عمره و للضغوط الواقعة على قدرته على تصور مستقبله و التخطيط له .. هذا مظهر أساسى و مؤلم جدا من مظاهر التخلف و بعد ذلك لنقس على مجالات كثيرة أخرى فى الحياة .

تبدأ أحلام المثقف علاء الديب مع عام ١٩٥٢ , عام الثورة, و هو أيضا العام الذى بدأ يشق فيه غمار الحياة بأحلام تسع العالم كله ، و يمارس وجوده فى حرية وسط عالم الأفكاروالمعانى ، عالم الكتب والفن و المثل العليا ، قلبه ينبض بأنبل المعانى دون ازدواجية تفسد جوهرها ، و يحمل على عاتقه مسئولية تغيير العالم ، إنه عام الثورة .. حيث تتعانق أحلام ثورته الشخصية مع أحلام ثورة الوطن " لا أعرف كلمة أكثر قدرة على إيقاظ نفس البشر من كلمة الثورة ، إنها تعنى القدرة على التغيير ، والحماس ، ووضوح الهدف ، وامتلاك الوسائل فى الفعل و الحرية فى الإقدام عليه " ص٧٧ ولكن لا تلبث الأحلام أن تكشف عن زيف محتواها ، و لاتلبث الأحلام أن تتحطم بأكثر الطرق إيلاما .. أن تتحطم فى صمت ، فيشاهدها تخبو شيئا فشيئا ، تذبح و تنتهك حرمتها وقدسيتها و نقاؤها تدريجيا دون أن يكون باستطاعته أن

يفعل شيئا سوى أن يرقبها تخبو أمام ناظريه، تخبو تحت مسميات مختلفة الحقائق و الظروف والإمكانيات . و يدرك المثقف حقيقة انتمائه للطبقة المتوسطة التى يكره الانتماء إليها ، و يكره إيقاعها الرتيب الضيق فى حدود ما هو يومى ومتكرر ، و يشعر بخيانتها و أنه طرف على حد تعبيره فى المؤامرة التى يحيكها الناس كل يوم .. مؤامرة الحياة . وبسؤاله عن السبب وراء كرهه لإدراك انتمائه للطبقة المتوسطة أجاب :

قبل الاجابة سأبدأ أولا بالحديث عن المثقف .. المثقف كلمة حمالة أوجه .. تقال كمدح و تقال كذم أحياناً و كتوصيف .. لكن المثقف الذى أقصده فى هذه الأوراق هو الشخص الذى وجد نفسه نتيجة لطبع أو لظروف مشغول بما هو غير مادى مباشر ,.. الفرد الذى يفكر فى شىء غير اليومى و العاجل .. هذا المثقف عندما يكون من الطبقة المتوسطة تصبح المشكلة مشكلتين .. و الطبقة المتوسطة فيما اعتقد و بعيداً عن التعريفات البرجوازية و التعريفات التى قدمتها أوروبا هى الطبقة الواقعة بين الناس الذين يعملون بأيديهم و يكسبون بعرقهم و بعملهم فى المصنع أو الأرض أو المهنة البسيطة وبين الناس الذين يعملون فى الفلوس و يتاجرون بها

ويعيشون بعائدها .. الطبقة المتوسطة هى مساحة البشر الموجودة فى الوسط .. يعنى الموظفين الذين لا يعرقون عرقاً مباشراً .. بمعنى أوضح الناس الذين فقدوا صلتهم بالطبيعة أو بالعضلات .. هؤلاء الناس فى رأيى محرومون من الإحساس الحقيقى بالحياة .. هى طبقة تتحايل على الحياة .. تقبض مرتباً و تعيش فى إطاره و تنتظر أول الشهر بفارغ الصبر و تنفد فلوسها قبل آخر الشهر .. الطبقة المتوسطة هذه ليست تلك الموجودة فى كتب السياسة و الاقتصاد .. بل هى الطبقة الموجودة حولنا فى الشارع و فى أغلب بيوتنا نحن سكان القاهرة و المدن الكبيرة .. هذه الطبقة بالنسبة إلىّ عندما أنظر إليها فى التاريخ الحديث لمصر أحس أنها " وعلشان كده أقول الدور و الخيانة " كان عليها أن تعمل دوراً تحويليا و تنويريا ضخما فى البلد .. كان عليها دين لكل الناس الأقل منها فى الوضع الاجتماعى و الثقافى و التعليمى .. هى الطبقة التى أخذت و اكتفت أنها أخذت و انعزلت وأنتجت إنتاجاً هى الوحيدة التى تستهلكه .. بمعنى أن أغلب الفنون و الآداب عندنا هى من إنتاج الطبقة المتوسطة والمستهلكون هم الطبقة المتوسطة أيضاً .. و هذا الذى أقصده و أتمنى أن يكون المعنى واضحا .. أنا لا أتهمها

بالخيانة التى تقدم من أجلها للمحاكمة و لكننى أتهمها بالخيانة التى تجعلها كطبقة تشعر بالذنب و بالاحتياج للخروج من عزلتها .. بمعنى أخر كان يوجد حلم أن الشعراء من الطبقة المتوسطة يكتبون شعرا يشعر به الفلاحون ويسمعه العمال .. وبالفعل كان هناك شعر العامية لكنه بقى وكأنه نوع من الإنتاج عن الدرجة الثانية .. كذلك القصة والرواية كتبها الكتاب لبعضهم البعض .. يناقشون بعضهم البعض فيما كتبوه .. المثقف فقد اهتمامه بالناس و انحصر اهتمامه بالدائرة الخاصة به فى أمور أخرى مثل الفلوس و الشهرة .. و بالتالى أنا أرى أنها طبقة مهمة جداً .. فهى محور الحياة .. أدت دوراً لكنها تخلت عن أدوار .

و يتردى الوطن فى متاهات الطرق , فتتحول أحلام المثقف إلى غربة , إلى غضب حزين مستسلم , فعندما يتحول الوطن إلى سجن للأحلام يحول بينها و بين التحقق و الخروج إلى النور يكون الاغتراب و الانسحاب و الهروب , و يكون البحث عن معنى مفقود للوطن " كم ليلة أمضيتها و أنا أشعر أننى بلا وطن , كم ليلة أحسست فيها بالرغم من بيتى و زوجتى وعيالى أننى لست ضرورياً , و أننى مطرود , و زائد على الحاجة" ص٣٥ . و فى موضع أخر يقول " سألت الغرباء

على وطنى ! طرقت الأبواب و لم يفتح لى .

و امتلأ الكون بأنكر الأصوات ." ص٨٥ . و يحاول المثقف لململة نفسة و بث الروح فيها من جديد , ما بين دروب التنظيمات السياسية المتناقضة المتنافرة تارة ، و ما بين التيه الأوروبى و غلظة النفط الخليجى تارة أخرى فى محاولة لصياغة ثنائية المثقف و الوطن من جديد ، و ربما فى محاولة للبحث عن إجابة ما فنجده يكتب أنه كان عضواً فى شعبة الإخوان المسلمين , و كان رفيقا فى تنظيم شيوعى قديم ، وعضوا فى هيئة التحرير , و فى تنظيم عبد الناصر الطليعى أيضاً ، و بسؤاله عن السبب وراء ذلك ، و إذا ما كان يبحث عن شىء ما أجابنى قائلاً :

الواحد لما بيتذكر هذا " بيبقى عايز يضحك " و هذا الأمر هو نموذج فعلاً لحاجتين .. نموذج للبحث عن حل ليس حلاً شخصيا و لكنه حل عام .. حل لوجود الواحد فى المجتمع .. و فى الوقت نفسه هو دليل على خاصية فى تركيبتى أنا شخصيا .. و هى أنه من الصعب جدا علىّ الإلتزام بشىء خارج الكتابة و خارج الفن .. الواحد فقط بيكون عنده طمع فى أن يجد فى أى تنظيم منهم إجابة للأسئلة كلها .. و لكنى اكتشفت انه لم يحمل أى تنظيم منهم إجابة .. إنما كان

يعمل نوعاً من العسكرة .. يعنى يحول الشخص إلى عسكرى .. كانت مشكلتى فى هذه التنظيمات أنى كنت دائم السؤال لدرجة أنى كنت مصدراً للإزعاج بالنسبة لمن حولى فتنتهى علاقاتى بهذا التنظيم أو ذاك و تقريبا ما تكاد العلاقة أن تبدأ حتى تنتهى .. و لذلك تنقلت كثيرا بين التنظيمات .. وفى الحقيقة أن ذلك أكسبنى معرفة بدائرة أوسع فى المجتمع .. ولم تقبض أى منها على عقلى و روحى .. أنا الآن ليس لدى غير كتاباتى و الورقة و القلم .. و أنا أرى أن هذه التنظيمات على الرغم من الأدوار التى لعبتها فى تاريخ البلد إنما هى لأناس آخرين غيرى .. لناس غير مشتغلين بالكتابة .

يشعر أديبنا بغربة شديدة عبر هذه الأوراق و عن ذلك حدثنى قائلاً :

و الله أظن أن الغربة هى قدر الإنسان الذى يحس و يفكر .. نحن نعيش فى زمن صعب و حاد .. و التنافس المادى والعملى فيه شديد .. فالغربة مثل معبر لابد أن يمر الإنسان من عليه أو أنا أشعر بذلك .. لأن الغربة هى التى تجعل الإنسان يصل إلى إدراكه لنفسه و قيمة حياته بعيدا عن السوق الذى نعيش فيه .. ندور من الصباح إلى المساء .. الغربة هى الجسر الذى يعبره الشخص لإدراك قيمة نفسه

وقيمة الدور الذى يمكن أن يعيشه أو يلعبه .. هى حالة معذبة لكنها مجدية فى نهاية الأمر .. و الألم الخاص بهامحتمل.

و نرتحل مع الأديب علاء الديب إلى المجر حيث أقام فى قرية صغيرة على شاطىء الدانوب ، و أثناء إقامته هناك مات عبد الباصر الزعيم المصرى ، و كان موته بمثابة اصطدامة أخرى للمثقف بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، و بسؤاله عما إذا كان موت عبد الناصر بمثابة إعلان عن فقد حلم بالنسبة إليه أجاب :

طبعاً عبد الناصر كان يمثل فى حياة الواحد حاجات مهمة جدا .. أنا من الجيل الذى جسد له حلمه و جسد له حل مشاكل تناقض الحياة حولى .. كنت أتصور أن مجتمع الازدواجية.. الأغنياء و الفقراء .. المتعلمون و الجهلة .. هذا المجتمع المزدوج كان هناك حلم للتخلص منه و إقامة مجتمع جديد أفقه الأمة العربية كما كنا نتصورها و العلاقة بين العمال و الفلاحين و الطبقة المتوسطة و الرأسمالية الوطنية .. كل هذا مع خصائص كانت موجودة فى عبد الناصر .. كان عنده تأثير " كاريزما " .. و طبعا أنا عشت تكوين الشباب ومطالع الرجولة فى ظل زمن عبد الناصر .. هو مات و انا فى المجر فى قرية صغيرة مخصصة للكتاب و الفنانين .. و لم

يكن بينى و بين أغلب الناس حوارلوجود حاجز اللغة .. طرق علىّ مدير بيت الفنانين الباب صباحا و قال لى عبد الناصر " كابوت " و هى كلمة مجرية معناها " خرب أو خلص " .. اعتقد أن الشعور الذى حسيت به و هو الشعور الذى حاولت وصفه فى الأوراق انى مثل مركب مربوط و انقطع الحبل الذى يصلنى بالشاطىء .. لم أعد أعرف ما الذى سيحدث فى بلدى .. و ما الذى سيحدث لى شخصيا .. فقدت المرسى مثلما يقولون .. طبعا المسألة أخذت وقتاً إلى أن أدركت أنه لا يوجد شخص يصنع أمة .. الأمة هى التى تصنع الشخص .. و ان عبد الناصر مهما كان كبيرا .. فمصر هى التى صنعته .. وقد ترك مصر فى مشاكل .. غرقانة .. تركها تبحث عن حل آخر .

فى محاولة المثقف لصياغة معنى للوطن و علاقته به يخلص إلى أن الحقيقة تكمن داخله ، فلم يعد أمامه سوى أن يقوم بالاكتشاف الشخصى لمعانى الكلمات " شخصى بمعنى أن أعرف المعنى فى داخلى و فوق أرضى ، أن أعانى البحث، و أن أرى ضوء الفهم يلمع فى داخلى ، أعاند أن تضيع حياتى و كلماتى و أفعالى بين العبث و ضرورة الرسالة " ص ١٠٤ . و ليصل إلى أن البداية تكمن فى الصوت الذى يقدم

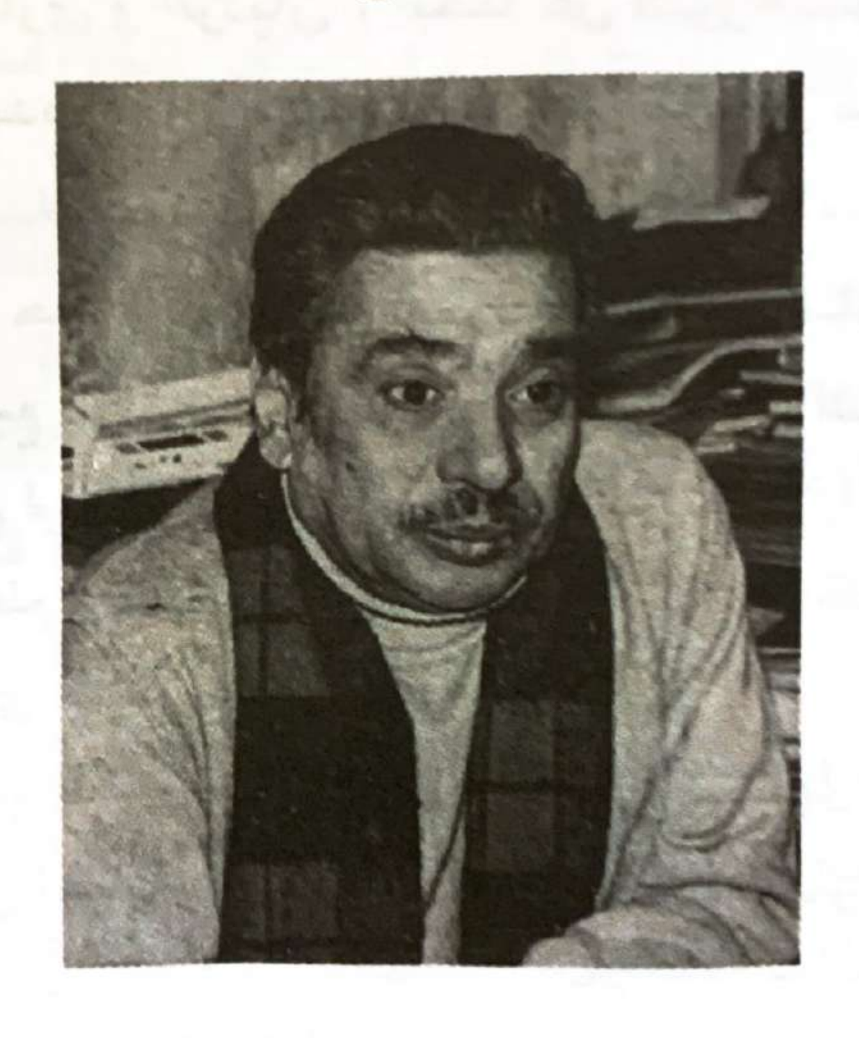
نقداً بصيراً مخلصاً .. يستهدف تطوير ضمير الناس وتحريك و عيهم . و أخيرا سألته عما إذا كنا نقترب كثيرا من حافة المنحدر فأجابنى :

أرجو أن يكون الفكر و الثقافة و النور الذى يرفع التخلف عن بلدنا و أمتنا يسير فى طريق آخر .. أن يكون المنحدر للمجتمع الذى عشته و رفضته و لابد له أن ينتهى حتى نعيش شيئاً جديداً .

انتهى اللقاء مع الأديب المصرى الكبير علاء الديب .. ولكننى لازلت أردد معه كلماته " أريد أن أتماسك أن احتفظ بالحس و البصر و البصيرة ، لا أريد أن أقترب كثيرا من حافة المنحدر . " (وقفة قبل المنحدر ص ١٠٥)

فاروق خورشيد

قهوة السبع دكاترة



"كريم على نفسى "

أبوزيد الهلالى ، سيف بن ذى يزن ، على الزيبق ، و عنترة بن شداد ، تحلقوا معى حول الراوى لسماع حكايات من الزمن الجميل . فقد دأب الراوى يا سادة يا كرام على التنقيب و التحقيق فى مختلف كتب التراث يجوب البلدان ، ويقطع الصحارى و الوديان ، بحثاُ عن كنوز الشرق الآسرة و قصص مجده الغابر ، ليعيد للأذهان مغامرات سيف بن ذى يزن ، و ملاعيب على الزبيق ، و حكايات الأميرة ذات الهمة , وقد حان الدور الآن لسرد قصة فرسان الأمناء ، وصولات السبع دكاترة فى قهوة عبد الله ، حان الدور الآن يا سادة يا كرام ليحكى الراوى لنا فصولا من مغامراته الخاصة ,بحثاً عن العلم و الحقيقة و الإبداع ، ليحكى لنا قصته، قصة الأديب المصرى الكبير فاروق خورشيد .

كتب الأديب الكبير فاروق خورشيد فى مستهل مقالته أنه كان حذراً فى اختيار الذكريات التى يحدث القارىء عنها ، وعن ذلك قال :

فى الحقيقة لأن كثيراً جداً من الذكريات يطغى عليها الجزء الاجتماعى و ليس الجزء الأدبى .. و المفروض فى أديب يكتب ذكرياته أن يكون مرتبطاً بعملية الإبداع .. و عملية

البحث و الدراسة نفسها .. ويكون حذراً فى ألا ينزلق إلى ذكريات شخصية تبعده عن هذا الهدف الأصلى أعلق هنا أنه من الأفضل للأديب إذن أن يحدثنا فى ذكرياته عن حياته الأدبية و الفكرية فأجابنى قائلاً :

لماذا يطلب منه كتابة ذكرياته ! لأنه يؤرخ مرحلة عمر فى حياته ,فى حياة الإنتاج الأدبى فى عصره .. و فى أدبه باللغة التى اشتغل بها .. و فى الظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة بالإبداع الفنى نفسه .. لكن ليس حياته الشخصية و علاقاته و ارتباطاته إلى آخره.. وهذا يدفع كثيراً من كتاب السيرة الذاتية إلى مزالق خطيرة .

بدأ عشقه للأدب منذ صغره " عشق الأدب جعلنى أقرأمنذ الصغر كل ما فى مكتبة أبى ، و كل ما فى مكتبة أمى من كتب ، و كانت أمى قد ورثت مكتبة شعبية ثرية تحوى كل السير الشعبية ، إلى جوار أعمال من أقدم المطبوعات الشعبية و التراثية الأخرى ، و سنوات كاملة لبعض الجرائد والمجلات الأسبوعية ، و كانت أول جائزة نلتها فى المدرسة الابتدائية مجموعة من الكتب و الروايات المبسطة باللغة الإنجليزية ، و أذكر أننى قرأت المجموعة كلها ، و عرفت طريقى إلى القاموس للتغلب على ضعف حصيلتى من الكلمات

و معانيها . و قد ربطتنى هذه الجائزة بالقراءة بشكل حاسم ، و عرف مصروفى الضئيل طريقه إلى جيب عم بشندى بائع الصحف .. " ص ٨٦ .

كما قرأ أديبنا فى سن مبكر كتب التراث مثل العقد الفريد، و خزانة الأدب ، و تفسير الزمخشيرى ، و بسؤاله عن مدى تأثير تلك الفترة على فاروق خورشيد الطالب فى كلية الآداب، و الكاتب و الأديب المتخصص فى التراث الشعبى فيما بعد أجاب :

أنا أسير بقاعدة فى حياتى كلها و هى إذا أردت أن تفعل شيئاً لابد أن تكون مستعداً له .. فأنا فعلاً فى أخر دراستى فى المرحلة الثانوية ومن حسن حظى أننى ارتبط بمكتبة البلدية فى دمنهور .. و كان مدير المكتبة رجلاً يعشق الأدب والفن فوضع تحت يدى هذه الكتب التراثية و أرشدنى إليها .. وهذه أفادتنى و وجهتنى حتى فى دراستى بقسم اللغة العربية .. دخلت القسم و أنا مجهز بمجموعة من القراءات التى كانت فعلاً فى صلب الدراسة .. و هو ما قربنى للأساتذه جداً وقرب الأساتذه لى .. إحساسهم بأنى لست جديداً فى الحقل وإنما أنا موجود من الأول فاهتموا بى .. و ارشدونى إلى ما يكمل قراءاتى فى مكتبة كلية الآداب فى القاهرة . هذا الأمر ربطنى

بجذور مهمة جداً و هى التى تكون أديب العصر .. أديب العصر يتكون من كل تراثه القديم .. حبه لتراثه هو الذى يخلق منه إنساناً قادراً على التعبير المعاصر .. هو الذى يخلق منه رجلاً يفتح الباب أمام الأجيال الجديدة كى ترتبط بماضيها و تستطيع أن تعبر عن حاضرها .. لأن لا غد بلا أمس .. فإذا عرفنا أمسنا جيداً .. استطعنا أن نعطى الغد شيئاً جديداً و جميلاً جداً لكن مبنى على أسس سليمة من موروث متواصل .. ورثناه فى الفكر و الفن و السلوك والحضارة .

كان للزمالة الدراسية دور فى بناء الأديب فاروق خورشيد , و قد كتب عن فكرة الزمالة فى تحصيل العلم و استكمال أدواته بشغف و إيمان عميق بأهميتها فى البحث و التحصيل و عن ذلك حدثنى قائلاً :

الحقيقة استطيع القول إنى كنت محظوظاً أن أدخل كلية الآداب وسط مجموعة من الزملاء لم يكونوا طلبة فقط بل كانوا أدباء و قراء و مبدعين من شعر إلى قصة إلى رواية .. إلى جوار كونهم طلبة نابهين مهتمين بالدراسة اهتماماً جيداً .. و لهم رؤى فيما يدرسون .. فقد كنا فى قسم اللغة العربية منزعجين من أننا مازلنا ندرس الأدب العربى بنفس المناهج

والقواعد القديمة و قد كنا نرى فيها شيئاً من الإجحاف بالتراث نفسه و عدم الفهم له لأنه مأخوذ من عقليات نقدية وقفت عند حدود معينة فى مفهوم الأدب .. الأدب عند هذه العقليات كان المختار و الجيد و المبدع فى اللغة و الأداء .. بينما تحول مفهوم الأدب فى عصرنا إلى العطاء فى التعبير عن النفس .. التعبير عن الذات من الداخل .. و وقع الوجود على وجدان الإنسان .. طبعاً هذا تغير فى المفهوم .. و التغير المعاصر جعل اللغة عنصراً واحداً و ليست كل العناصر .. حكم اللغة ليس كافياً أبداً ليخلق أدباً جيداً .. يعنى قواعد البلاغة و البيان البديع القديم أصبحت محتاجة إلى إضافة جديدة إليها و هى الصدق الفنى و القدرة على التعبير الحقيقى و وجود القوة الدرامية فى العمل المقدم .

مثلت دعوة الدكتور محمد كامل حسين * أستاذ الأدب المصرى لفاروق خورشيد الطالب بكلية الآداب آنذاك لحضور

---

*كما جاء بالمقال جمع د. محمد كامل حسين فى بيته بين طلبته و بعض كبار الأساتذة فى الإبداع و النقد ممن كانوا يشكلون مجموعة الأدباءالتى اتخذت من قهوة عبد الله فى الجيزة فى تلك الفترة مكاناً للحوار و المناقشة حتى اشتهر المقهى باسم قهوة السبع دكاترة و من هؤلاء الدكاترة محمد كامل حسين و عبد الحميد يونس و محمد القصاص و عبد القادر القط و محمد خلف الله و عبد العزيز الأهوانى وإسماعيل النحراوى .

الصالون الأدبى فى بيته بالجيزة كل يوم ثلاثاء , مرفأ مهما أرسى معانٍ كثيرة فى كيانه الأدبى على حد قوله , و عن ذلك حدثنى قائلاً :

الحقيقة كان الدكتور محمد كامل حسين يمثل صورة الأستاذ الجامعى كما يجب أن يكون .. لم يكن أستاذاً محاضراً و متخصصاً فقط .. و إنما كان صديقاً و أباً لكل الطلبة الذين يدرسون عنده فى قسم اللغة العربية .. و كان يتميز بأن لديه استشرافا و حساً .. كان يلتقط كل الطلبة المتميزين .. يحتضنهم .. و يبدأ تتبع أعمالهم و دراستهم وإبداعهم .. و يحاول تقديمهم لكتاب و أدباء العصر المشهورين .. و يحاول اشراكهم فى الحياة الأدبية العامة .. و يزيح من أمامهم كل العقبات الممكنة .. فكان رحمه الله يدعونا .. مجموعة من الطلبة و الخريجين من كلية الآداب إلى منزله كل يوم ثلاثاء الساعة الخامسة أو السادسة .. على " كباية شاى "و فى الوقت نفسه كان يدعو معنا مجموعات كبيرة جداً من أدباء العصر .. فكنا نلتقى عنده فى بيته .. الأدباء الشبان يقرأون أعمالهم و ينقدوها بأنفسهم .. و فى الوقت نفسه يستمع إليهم الأدباء الكبار .. و يكون فيه نقاش بين الجيلين .. ويحدث نوع من الاشتباك أو التقارب أو نوع من

التفاعل المشترك . كان من الأساتذة الكبار الذين يأتون إلى هذه الجلسة بعض أساتذة الجامعة مثل د.عبد الحميد يونس ود.عبد العزيز الأهوانى و د. عبد القادر القط ..إلى جوار مجموعة من الشباب كان منهم صلاح عبد الصبور و عز الدين إسماعيل و عبد الرحمن فهمى و أنا و عبد الغفار مكاوى و غيرنا .. إلى جوار أن الصداقة التى تكونت بيننا وبين بعض كمجموعة الجمعية الأدبية المصرية كان فيها عامل مهم جداً و هو أننا كنا نلتقى على قراءات.. يعنى كنا نذهب إلى بيت عبد الغفار مكاوى لمدة أسبوعين أنا و صلاح عبد الصبور .. هو كان يقرأ فى الأدب الألمانى و كان يأخذ وقتاً طويلاً منه و كان يقرأ كامى .. و صلاح كان يقرأ إليوت و أنا كنت أقرأ برنارد شو .. و فى الليل و " احنا بنتمشى " أمام النيل عند منيل الروضة نتناقش فى الذى قرأه كل منا ..كل واحد يقول رؤاه النقدية وحسه بالكاتب الذى قرأ له .. فاتعرفنا على نفس الكتاب بنفس الطريقة و بنفس المستوى .. و أيضاً أتذكر العلاقة بينى و بين الدكتور محمود ذهنى ..جلسنا نقرأ سيرة عنترة بن شداد معاً .. و طلعنا كتاب اسمه كتابة السيرة الشعبية .. قائم على دراسة عن عنترة بن شداد .. فالقراءة المشتركة بين الزملاء هى التى تفتح مجال

البحث و الإبداع أيضاً .

خلال قراءتى لذكريات الأديب الكبير فاروق خورشيد اجتذبنى شعار جماعة الأمناء الذى كان عضواً بها , و التى أسسها الشيخ الجليل الأستاذ أمين الخولى و هو شعار(كريم على نفسى) " كان الشعار المرسوم للجماعة نهر النيل وكلمة كريم على نفسى و كان الشعاران المنطوق و المرسوم يمثلان طموح الشباب المثقف فى ذلك العهد ، فى التعرف على نفسه، وأن يبنى نفسه بنفسه , و أن يؤكد كرامته ومكانته وجوداً وفعلاً " ص٩٠ . و تساءلت عن ما الذى يعنيه هذا الشعار .. هل كان مجرد شعار أم كان واقعاً ملموساً فى تلك الفترة من الزمن فبادرنى أديبنا مسرعاً بقوله :

هو "مش " شعار فقط .. هو منهج سلوك .. نحن قلنا إن الثقافة مثلما هى فكر و معرفة هى سلوك أيضاً .. فكريم على نفسى معناها أن أكون حريصاً على أن لا أبتذل هذه النفس ولا أعطى لأحد الفرصة ليأخذ عليها مأخذاً ما , فأنا أكرم نفسى بأن أبعدها عن الزلل .. أكرم نفسى بأن أجعلها أعلى من أن تخضع لمغريات الحياة اليومية .. و أن تضيع و تنتهى كل مثلها العليا من أجل لقمة العيش . أو من أجل معنى من معانى الحياة العادية .. فالشعار سليم و مهم .. الأمناء كانت

تدرس بالذات الأدب المصرى .. كانت تحاول أن تضع قواعد معينة للدراسات الأدبية الجديدة .. أساسها نفسى و إبداعى .. و أيضاً كانت تضع شيئاً سلوكياً .. يعنى أن تكون كاتباً صاحب سلوك .. سلوكك هو النموذج الحقيقى فى أنك استفدت من كل ثروتك الثقافية فى سلوكك اليومى .. فمنها ومن أهمها هى كريم على نفسى .. وجماعة الأمناء تجددت أواخر القرن الماضى بمجموعة الجمعية الأدبية المصرية التى كانت الامتداد الحقيقى للأمناء .. و دخل فيها الأمناء الباقون بعد أن توفى الشيخ أمين الخولى .. فدخل معنا الدكتور عبد القادر القط , الكتور عبد الله خورشيد البرى و هم من الأمناء الكبار .. و الدكتور حسين نصار و الدكتور شكرى عياد وكثير من الأمناء الكبار الذين كانوا معروفين فى ذلك الوقت ودخلوا فى إطار الجمعية الأدبية المصرية .. و كانوا كلهم شباناً

و بدأ تجديد دم الأمناء فى إيهاب الجمعية الأدبية المصرية .. لكن بعد أن توقفت الجمعية أصبحت المسألة صداقات قائمة بدون رابطة الجمعية .. صداقات قائمة على فكر موحد .. أهداف موحدة .. رؤى تقريباً متكاملة .

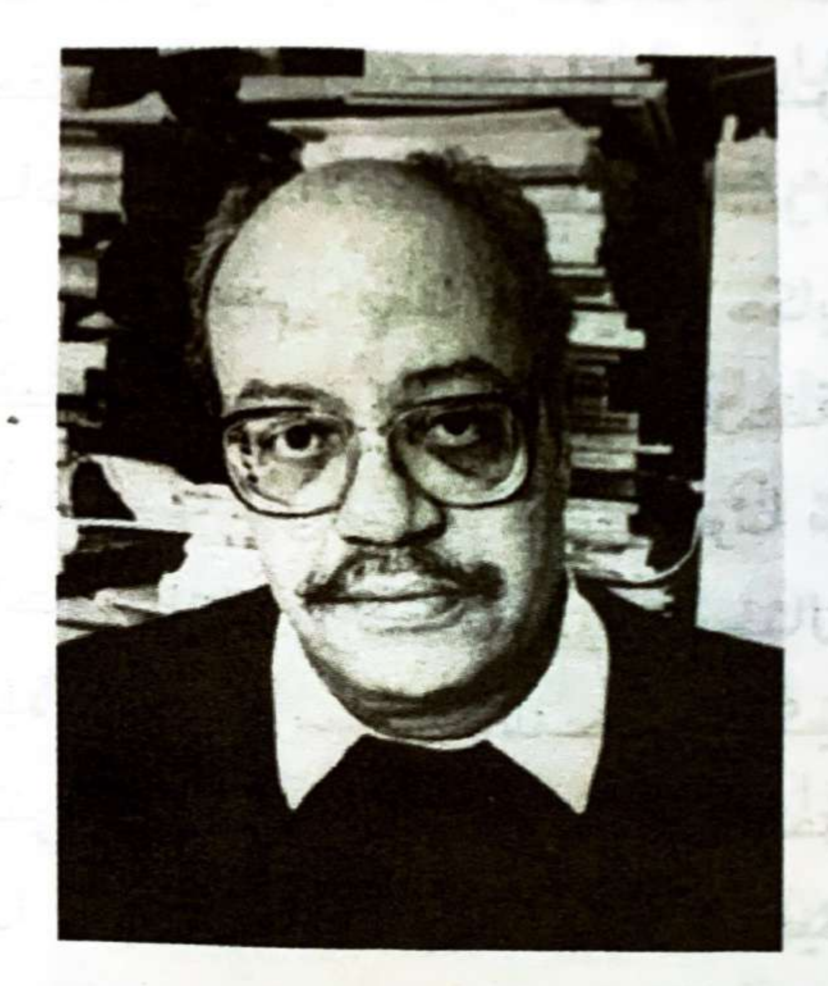
اختتم أديبنا حديثه معى برؤيته عن فكرة تواصل الأجيال، فهو يرى :

أن على الشباب أن يضع فى اعتباره أهمية معرفة الجيل السابق له , أن يعرف عمله , يقرأه ويدرسه و يرتبط به , خاصة و هو لايزال حياً أمامه , فيرتبط به معرفة و مناقشة وتبادلاً للفكر و الثقافة .

رحم الله أدبينا الكبير فاروق خورشيد .

محيي اللبّاد

كشكول الرسام



"منذ أيام الطفولة , و أنا احتفظ بعدد من التذكرات الصغيرة التى تبدو ساذجة . لكن رؤيتى لها كثيراً ما تجعلنى أتذكر فترات مضت من العمر بتفاصيلها الرائعة . وعند ذلك

تحضر الأيام الماضية أمامى حية زاخرة . "

عرفته منذ الصغر .. برسومه و ملاحظاته المدهشة المُلهمة للبصر و العقل معاً , فقد كانت تطالعنى رسومه و أفكاره على صفحات مجلات الأطفال المختلفة .. و تذكرت و أنا بانتظاره فى مرسمه بحى مصر الجديدة , حكايات (الأستاذ زغلول) و (خطير مخترع كبير) ,و(ملاحظة) التى كان يجذب أبصارنا فيها إلى أشياء جميلة حولنا نراها لكننا لا نلحظها . كنت أتمثله دوماً كساحرجرىء مختال .. فبجعبته الكثير من الأفكار و الرسوم و اللمحات الذكية ، و عندما التقيته وجدتنى أمام ساحر طفولتى .. لكنه ساحر خجول جداً .. بسيط جداً .. يحمل قامة طويلة ، وصوتاً خفيضاً ، و روحاً هادئة .. ودار بخلدى أن ذلك السحر ربما منبعه ذاك الهدوء المُتأمل الذى يلحظ و يفكر .. و أن ذاك الخجل هو مرح و انطلاق أمام الورق و الألوان و الكتب التى يصنعها , و ها أنا

معه أحاول الولوج إلى عالمه الخاص .. و مُحاورة تلك الروح الهادئة التى علمتنى و مازالت تعلم غيرى سحر التأمل والملاحظة . و بدأنا نقلب معاً صفحات (كشكول الرسام) الذى يحوى فى بساطة وعمق ذكريات و خبرات بصرية وروحية بديعة للرسام الكبير و صانع الكتب -كما يُحب أن يُدعى - محيى الدين اللباد, و التى ينقلها بالصورة والكلمة إلى القراء صغاراً و كباراً ، إنها سيرة ذاتية لها مذاق خاص فيما تنتقيه و تعرضه للقارىء ، و عن فكرة (كشكول الرسام) حدثنى قائلاً:

الكتاب لم يتم تنفيذه بخطة أو بفكرة مسبقة بكثير .. إنما نفذ بالصدفة أو بالتراكم ، لكن الآن أستطيع أن اعتبره كتاباً به تجميع لبعض ذكريات الطفولة من زاوية العمل الذى احترفه ، و هو الاتصال البصرى و الرسم و تصميم الكتب والكتابة و هكذا .. فهو تجميع للذكريات و فى الوقت نفسه تجميع لعدد من الخبرات و الاكتشافات من ممارسة المهنة وأنا كبير يمكن تكون موجهة لمن هم أصغر ، يعنى فى خطين متعاكسين فى الكتاب .. الكتاب سميته (كشكول) لأنه فعلاً شبيه بالكشكول .. فليس كله رسومى و إنما فيه كثير من

رسومى و فيه كثير من الأشياء المقصوصة و الملصقة .. فى تجميع أيضاً ، ولاوجود لموضوع واحد ، فالكتاب به عدة موضوعات يجمعها خيط أو خط واحد لكنه ليس حاجة واحدة .. يوجد حوالى ٣٠ موضوع ..

يحتفظ الفنان بعدد من التذكرات الصغيرة من أيام طفولته و عن ذلك قال :

أظن أن عددا كبيرا من الناس يحتفظ بأشياء تذكرهم بما مضى .. مثل الأشياء التى احتفظت بها و كتبت عنها وألصقت صورها فى أول صفحة بالكشكول ، و هى تذكرة ترام .. زمان كانت تذكرة الترام ال٨ مليم كانت أنواع للخطوط أو الوقت ، الكمسرى كان معه خشبة طويلة فيها مجاميع من هذه التذاكر .. كل مجموعة منها كانت بلون ، يعنى ورق مصبوغ بلون أصفر خفيف أو أخضر خفيف أو أزرق خفيف أو بصلى ، فكانت ألواناً جميلة جداً بالنسبة لى و كنت أجمع هذه التذاكر ، التذكار الثانى ملصقات من على شهادات لى و أنا فى الروضة كنت محتفظاً بها ، هناك أيضاً فى ظرف بريد صغير عليه طابع الملك فاروق بأربعة مليمات و كان عبارة عن كارت أرسل لوالدى و كانت هذه هى المعايدات

زمان .. و أنا احتفظت بعدد من هذه الكروت أيضاً و أنا صغير ، و دفعنى ذلك لهواية جمع الطوابع و أنا صغير .. و عالم الطوابع عالم ثانى ينقل للواحد حاجات كثيرة

و ذكرياتى معه جميلة و واسعة.. هناك أيضاً صورة لثلاثة رجال يرتدون القفطان و العمامة و الجبة .. الشخص الجالس هو جدى الشيخ محمود زغلول والد والدتى ، كان أستاذاً فى الأزهر و كان أستاذاً لأبي .. و المعمم الثانى خالى الشيخ محمد زغلول المحامى الشرعى .. والثالث لا أعرفه .. هذه الصورة جلبتها من عند أمى و استعملتها فى الكتاب ، عجبنى فيها الفوتوغرافية لأنها صورة من صور زمان ذات اللون البنى .. غير أنى لم أر جدى ..لكننى رأيت خالى .فاحتفظت بالصورة .. و كنت سعيداً أن جدى مقاس حذائه كبير مثلى ، و توجد درجة من الشبه و فى الطول أيضاً .

تحت عنوان (شم و اتفرج) يعرض لنا الفنان مجموعة من الصور التى يشم لدى رؤيته إياها روائح خاصة ، و عن العلاقة بين الصور و حاسة الشم روى قائلاً :

أنا قصدت أن ألفت النظر إلى ارتباط الحواس ببعضها وارتباط التذكر بكل الحواس .. كثيراً الواحد يشم رائحة

يتذكر بها مكاناً أو شخصاً أو حدثاً حدث له ، و الأصوات كذلك .. من بين هذه الصور صورة لبوابة برلين أشم لدى رؤيتى لها رائحة سوائل تنظيف .. أنا عشت فى برلين من ثلاثين سنة فى بعثة مع نقابة الصحفيين و لم اكتشف أبداً أن تلك الرائحة هى رائحة برلين ، و برلين فعلاً فيها هذه الرائحة قوية .. يبدو أن سوائل التنظيف هناك لها علاقة بالصنوبر.. لكن لم اكتشف هذا إلاَّ بعد خمس سنوات دعتنى نفس الكلية التى كنت أدرس بها للاحتفال بذكرى تأسيسها .. فعند ركوبى للطائرة الألمانى شممت نفس الرائحة ... فاكتشفت أنها رائحة برلين .. و بقيت كل ما أتذكر برلين أتذكر تلك الرائحة ..

كتب الرسام و صانع الكتب محيى اللباد عن حلم قديم كان يراوده و هو أن يكون سائق ترام .

و عن ذلك قال :

كنت فى الطفولة أسكن فى منطقة اسمها اليكنية ، وهى قريبة من القلعة ، و هناك كنت أخرج منها على شارع محمد على ، و فى أول شارع القلعة يوجد جامع السلطان حسن وأمامه جامع الرفاعى ... و هذا كان ملف أو دوران الترام

القـادم من نـاحيـة مـيدان القلعـة و يلف على أول دخلتـه على شارع محمد على ... وكان له صوت كان بالنسبة لى عظيماً و مهيباً جداً ، و كان الذى يؤثر فىّ أكثر سائق الترام ، كنت معجباً إعجاباً شديداً به في الشتاء كان يقف فى مكان مكشوف مرتدياً بالطو صوف كاكى .. و قفاز صوف من غير أصابع مثل قفاز الفرن المستخدم فى المطبخ الآن فكان يبدو لى كقبطان يتعامل مع أعالى البحار ، و كان يبدو لى رجلاً قوياً يسيطر على كائن عظيم هو الترام .و كنت فعلاً نفسى أكون مثله .. لما كبرت و بعد كمان لما كتبت هذه الصفحة .. اكتشفت أن عدداً كبيراً من الناس كان عندهم نفس الحلم .. من بينهم أظن نجيب محفوظ و الكاتب الإيطالى ألبرتو اتكو قرأت إنه كان يريد أن يكون سائق ترام ، فهو حلم قديم " عند ناس كثيرين مش أنا فقط " .

عندما احترف اللباد الرسم اكتشف أن بإمكانه تحقيق أحلامه عن طريقه ، فرسم نفسه سائق ترام و هى الصورة المصاحبة لموضوع (حلم قديم) ، وبسؤاله عن ما إذا كان الرسم قد حقق إليه عالماً أخر من الأحلام و الأمنيات التى كان يسكن إليها أجاب :

كل الفنون توسع الواقع و عن طريقها يمكن تجاوزه ... سواء بالرسم أو بالموسيقى أو بالكتابة ، فهذا شيء يفرح إن الواحد يقدر يعمل نفسه حاجات كثيرة .. و التمثيل أيضاً .. أنا تمنيت أن أكون ممثلاً .. فقد شاهدت عروضاً كثيرة بها ممثلون أعرفهم .. يستمتعون جداً بتقمص شخصيات مختلفة .. و معايشة تجربة أخرى .. و بذلك يخرج الواحد من الحياة الضيقة المحدودة و هى الواقع .. و الرسم يتيح الشيء نفسه .. و كان هذا هو معنى صفحة (حلم قديم) .

و تحت عنوان (الاكتشافات) تطالعنا رسمتان لورقة نقدية من فئة الجنيهات العشرة المصرية " كان عندى بعض الوقت بلا مشاغل , فجلست مسترخياً صافى الذهن ، أتسلى بأشياء صغيرة مختلفة . وجدت أمامى ورقة من فئة الجنيهات العشرة ، فجعلت أتأملها . يا الله ! لقداكتشفت فيها أشياء لم اكتشفها من قبل ، مع أنى أتداول هذه الورقة من النقود منذ عشرات السنين . رأيت فيها منظراً جميلاً لمسجد الرفاعى بالقاهرة، و رأيت فى المنظر ثريا كبيرة، ومقصورة الرخام التى يجلس عليها قارىء القرآن ، ومشكاوات تتدلى من سقف المسجد ، و زخارف كثيرة .. "
كشكول الرسام

و عن حبه للتأمل قال :

أظن أن الناس تتأمل بشكل أو بآخر .. لكن نتيجة كثرة ما يجب أن نتأمله كثيراً ما تسقط منا حاجات .. فهذه الصفحة هى دعوة للتأمل و عدم إهماله لأن الحياة تجبرنا كثيراً على إهمال التفاصيل و تجعلنا ناساً شموليين نفكر بشكل شمولى .. إنما التفاصيل جميلة و من الصغر و أظن إنى لست وحدى.. يعنى كل الناس فى طفولتها لعبت فى تكوين ذاكرتها البصرية غير الواقع الحاجات الصغيرة.. علب الكبريت وطوابع البريد و علب السلع مثل علبة السالمون و السمكة المرسومة عليها .. كل هذا فى رأيى له تأثير كبير على الطفل .. و تأثير بمعنى التأثير الفنى يعنى الناس لا تتكون الذائقة الخاصة بها من خلال اللوحات و المتاحف فقط .. فهذه حاجات مؤثرة جداً بالسلب و الإيجاب .. يعنى أنا عندى ذكريات مقبضة جداً عن حاجات مثل تغليفة حلويات وهى حاجة مفروض نسعد بها .. و العكس توجد ذكريات عندى فى غاية من اللطف و الانشراح من حاجات مماثلة .. والعالم كان ضيقاً لم يكن هناك تليفزيون مثلاً و إنما كان المتاح هذه الأشياء.. و هذا غالباً ما كوننى و جعلنى أتجه للمهنة التى

أعمل بها الآن .. و عندى خطة أن أكتب الكثير عن هذه الحاجات و أن استعيدها و أكتب عنها .. و حكاية الجنيهات العشرة التى كتبت عنها أنى اكتشفت أننى لم أتفرج عليها جيداً .. و جدت فيها تفاصيل .. مثلاً جرة لها أرجل وهى رسم مصرى قديم .. هذه الحاجات موجهة للناس و ليس للفنانين .. فالدعوة كانت لكل الناس ان تتأمل فى كل التفاصيل .. أنا فى مرة كنت منتظر أدخل مسرح .. وكان مسرح الجيب القريب من النيل عند حديقة الأندلس و فجأة نظرت فوق إلى السماء فأكتشفت أن هناك سماء و نجوما وإن مرت شهور لم أنظر فيها إلى السماء كى أراها و أرى النجوم .. فحياة المدن وحياة السرعة و الأعباء الكثيرة تجعل الناس لا ترى ليس فقط الأشياء الصغيرة بل السماء و النجوم أيضاً ..

تحت عنوان (أول لمسة) كتب اللباد قصة طريفة عن ظل طائرة لمسه و هو صغير , و رسم صورة مصاحبة للقصة لطفل يغطيه ظل طائرة و هو يرفع رأسه لملاحقته و عن ذلك حكى قائلاً :

كنت فى الغيط فى البلد عندنا .. و كان فى طائرة تطير

فى السـمــاء .. و كنت لأول مـرة أعـرف أنه يمكن أن يكون للطائرة ظل على الأرض لأنها تطير على ارتفاع .. لكن فعلاً الطائرة لما تكون على ارتفـاع قريب ظلها يكون كامـلاً على الأرض .. وجدت الظل يتحرك سريعاً مع الطائرة ثم مسنى وتركنى . . فاهتـززت للأمـر و حلمت بالسفـر .. و بعـد ذلك عندما كبرت و ركبت طائرات و سافرت ... كنت أحاول أن أنظر من فـوق على ظل الطائرة و اتخيل أن قصتى مع الظل أكيد ستحدث مع طفل أخر و يحلم بالسفر و يسافر مثلما سافرت..

مساحة للأخر .. يذكرنا بها اللباد فى كشكوله عن هامش الكتـاب المتـروك للقـارىء فى الكتب القـديمة و الذى يفـضل عودته كونه صانعاً للكتب و عن ذلك قال :

أنا كتبت عن هامش الكتاب و كان هامشاً واسعاً جداً .. و عن فاتحـة الكتاب و هـى الصفحـة الأولى فى الكتاب و فيها نوع من الاستقبال المزخرف الجميل للقارىء و هو يشرع فى قراءة الكتـاب .. أنا والدى كان أستـاذاً فى جامـعة الأزهر وكان فى البيت مكتبة فيها كتب ورقها أصفر جميل و على فكرة من احسن الألوان إنهـا تبـقى أرضيـة لقراءة اللون

الأسود هو اللون الأصفر و ليس الأبيض .. فشاهدت الكتب المطبوعة في أول القرن .. فى بعضها كان فى أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين .. كان فيها الصفحات الأولى المزخرفة و هو تطبيق لنفس فكرة هذه الصفحة فى المخطوطات العربية القديمة .. عندما دخلت المطبعة عمل الفنيون تطبيقاً جميلاً جداً للصفحات الأولى و الصفحات الأخيرة أيضاً التى كان لها نظام أن النص لاينتهى بسطر عرضى .. كان يدرجه و ينزل على شكل هرم مقلوب أو مثلث مقلوب قمته تحت بحيث إن النص ينتهى بكلمة واحدة تقريباً .. و هذا كان شيئاً فيه لطف و طرافة .. هذه الكتب رأيتها وشاهدتها كثيراً و أنا صغير و كان مسموحاً لى بتقليب صفحاتها .. لكن الاهتمام بهذه الطريقة فى صناعة الكتب والعودة لها و تأملها جاءنى و أنا فوق الثلاثين .و ذكرتها فى الكتاب لأنى رأيت إنها شىء طريف إن القارىء يعرفه .. أما عن مساحة للقارىء فهى عن الكتب العربية التى كتبت على هامش كتب أخرى .. ممكن قارىء أو عالم أو أديب يقرأ فى الكتاب و يكتب تعليقاته فى الهامش الواسع الموجود فى كل صفحة من صفحات الكتاب .. و قد تتحول هذه التعليقات إلى

كتاب أخر فيصبح الكتاب موجوداً على هامش كتاب ثانى . .
و أنا عندى كتاب (الحيوان) للجاحظ مثلاً على هامشه
مكتوب كتاب (الحيوان) للدميرى .. يعنى الدميرى اشترى
مخطوط (الحيوان) للجاحظ و قرأه و على الهامش بدأ يكتب
تعليقات تحولت إلى كتاب .. و فى عصر الطباعة طبع الكتاب
بنفس الطريقة و كان العنوان (الحيوان للجاحظ و على
هامشه الحيوان للدميرى) .. و أنا كتبت عن ذلك لأنى
تصورت أنه لطيف للفتى و الفتاة من أولادنا إنهم يعرفون
هذه الأمور عن الكتب العربية ..

تطالعنا فى و احدة من صفحات الكشكول رسمة لأحمق
الحكايات و قد حكى رسامنا لى عن قصته معه قائلاً:

أحمق الحكايات هى الصفحة التى بدأت بها فكرة الكتاب
.. الكتاب تراكم التفكير فيه و تم عمله على مراحل عديدة ..
أنا كنت فى مرسمى و كان عندى ضيف .. كان بيننا معرفة
تاريخية و انتهت و كان يتحدث فى كلام ليس لطيفاً بالنسبة
إلى فمن باب القلق و التوتر و منعاً للملل و محاولة لضبط
نفسى بدأت أرسم فكانت الرسمة لشخص طويل و" كاركتر"
, و انتهت المقابلة فنظرت للرسم و وجدته " مش بطال "

فـفكرت قليـلاً.. و تذكـرت كـتب طرائف العـرب و تحـديداً شـخـصيـة "هَبَلنَقَة" فعـجبنى الاسم و ترابطت الرسمـة مع شـخصية الأحمق .. و كتبت نصاً عن أن الناس دائماً تتخذ شـخـصـاً كى يكون أحـمقـاً كى يظهروا أنهم العاقلون و بدأ شكل تتبع حـاجة مـا من الحاجـات المحليـة .. حتـى اكتملت صفحات الكتاب .. و الكتاب كل صفحة به مستقلة من الناحية الشكلية .. لكن يوجد خيط ما يجمعه .. و حصل الكتاب بعد ذلك على جائزة التفاحـة الذهبية لبينالى براتسـلافا الدولى لرســوم كـتب الأطفـال .. و بعـد ذلك وصل للمـركـز الدولى لدراسـات أدب الطفولة بفـرنسـا و فـاز بجائزة الأوكـتوجـون (جـائزة الأدب الملون) التى منحـهـا المركز و هى الكتب التى يكتبـهـا و يرسـمـهـا الرسام .. و تمت ترجمتـه بعد ذلك إلى الفرنسية و الألمانية و الهولندية .

و يظل كشكول الرسام و صانع الكتب محيى الدين اللباد .. مانحاً للبهجة و الطرفة و التأمل لأجيال متعاقبة ..

مريد البرغوثي

رأيت رام الله



"ما الذى يسلبُ الروحَ ألوانها ؟
ما الذى غير قصف الغزاة أصاب الجسد ؟
بدأت رحلتى معه فى محاولة لتشييد جسر يربطنى بعالمه . على غرار جسره الذى يأخذ قارئه إليه فى حذر ليعود معه بعد ثلاثين عاماً من الغربة إلى دير غسانة ,إلى رام الله ,إلى فلسطين .

محاورته أفضت بى إلى فلسطين أخرى بعيدة عن فلسطين نشرات الأخبار , فلسطين الناس و الأماكن القريبة البعيدة .. إلى تاريخ خارج الكتب لم يسطره المؤرخون . . إلى تاريخ سطرالشاعر الفلسطينى الكبير مريد البرغوثى كلماته فأحال النثر شعراً . . إلى تاريخ يحكى ما هو أكثر من الذكريات .. ما هو أعمق من الحنين . أثناء محاورتى معه كان الجسر الذى شيدته يقربنى منه تارة و يبعدنى عنه تارة أخرى .. مزيج من التآلف و الغربة شعرت به .. فقد كان اقتحامه عسيرا بالنسبة إلىَّ ربما لأن غربته هى غربتى أيضاً .. هى غربتنا فوق أرضنا العربية.

بدأ حديثنا من الجسر – و هو أول عنوان يطالع القارىء لسيرته الذاتية رأيت رام الله – ذلك الجسر الخشبى الذى

يقطع نهر الأردن ليصل فلسطين بالأردن " الطقس شديد الحرارة على الجسر ، قطرة عرق تنحدر من جبينى إلى إطار نظارتى ، ثم تنحدر على العدسة. غبش شامل يغلل ما أراه ، و ما أتوقعه ، وما أتذكره . مشهدى هنا تترجرج فيه مشاهد عمر , انقضى أكثره فى محاولة الوصول إلى هنا. ها أنا أقطع نهر الأردن . أسمع طقطقة الخشب تحت قدمى . على كتفى الأيسر حقيبة صغيرة . أمشى باتجاه الغرب مشية عادية . مشية تبدو عادية . ورائى العالم ، و أمامى عالمى . "
(رأيت رام الله .. ص٥)

وعن دلالة الجسر حدثنى قائلاً :

الجسر عموماً فى اللغة محمل بعشرات المعانى .. هوفاصل بين أرضين .. بين شاطئين .. بين زمنين .. بين أمرين .. بين عالمين.. بين مشكلة و حلها .. بين عاطفة ونقيضها .. هو عتبة للتغير ، هو الانتقال بالجسد بين جغرافيتين .. الجسر أيضاً الانتقال بالمعنى.. الانتقال بالروح .. بالعاطفة , الجسر حالة انتقالية, فى الكتاب الجسر هو فاصل بين العالم الذى عشته فى سنوات المنفى و الغربة و بين عالمى الحميم فى الوطن أعلق بدورى أن الجسر هنا هو الذى يصله بذكريات الوطن فأجابنى قائلاً :

هى ليست ذكريات .. هى عيشة فى الوطن بأكملها كسرت بالاحتلال ثم استعيدت بعد ثلاثين سنة , فكلمة ذكريات هنا خفيفة.

بدأ تداعى الذكريات - إن جاز التعبير هنا- منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدماه الجسر ، لنعرف أن شاعرنا قدعبره قبل ثلاثين سنة فى طريقه من رام الله إلى عمان ومنها إلى مصر ليستكمل دراسته بجامعتها فى العام الدراسى ١٩٦٦-١٩٦٧عام تخرجه و عام هزيمة يونيو ..

العام الذى أصبح فيه شاعرنا من " النازحين " .. العام الذى أصبح فيه " ذلك الغريب الذى كنت أظنه دائماً سواى " (رأيت رام الله ص ٨ (ذلك الغريب الذى لا يعود أبداً لحالته الأولى على حد تعبيره ، و عن ذلك قال :

عندما يعود الإنسان إلى مكان متروك فإنه لا يرغب فى استرداد مفردات المكان ذاتها.. لماذا نشتاق إلى الأماكن التى تركناها .. نحن نشتاق لأعمارنا فيها.. لحياتنا فيها.. لمشاهداتنا فيها .. لتجاربنا فيها.. و عندما يعود الإنسان إلى مكان هو لا يسترد أبداً لا مرحلته العمرية و لا مشاعره التى كانت من ثلاثين سنة هذه أمور لا تسترد ، هو يسترد الأماكن

.. يجد المكان على حاله لكن من أين له أن يسترد الطفولة والعمر الذى مضى و الناس الذين ابتعد عنهم على حالهم قبل ثلاثين سنة ؟ ! يجدهم مثله مكتهلين أو فى حالة اجتماعية مختلفة ،الأعزب تزوج ، الصغير كبر ، الأسرة الصغيرة أصبحت أسرة واسعة. . فبالتالى أنا لا أحب أبدا استخدام كلمة حنين فهى كلمة رخوة .. و لكن استرداد الإرادة التى كسرت بأن ترغم أجيال بأكملها على مغادرة وطنها نتيجة الاحتلال و قسوته و جرائمه فهذا الذى يتكون فى هذه الأجيال لا يكون حنيناً رومانسياً مسترخياً .. الذى يحدث أنهم يكونون فى حالة غضب أكثر من حالة شوق ، و فى حالة رغبة فى استرداد الإرادة المكسورة .. لأن إرادة الاحتلال تنتصر عندما يقوم ببسط سيطرته على الأرض و تبدأ إرادة المواطن فى الانكسار.. كل عمر الفلسطينى هو محاولة لانتشال إرادته كى لاتكون مكسورة .. كى لا تظل مكسورة وبالتالى نحن نعيش ، و نكتب ، و نستشهد لنسترد إرادة منتصرة و بالتالى هذه المشاعر بعيدة عن مشاعر الحنين المسترخى ، نحن لا نعود إلى الأماكن التى تركناها لكى نسترد الحجارة و الأزقة و المبانى .. نعود و كأن فينا رغبة

فى أن نقول مرة أخرى نحن هنا .. بإرادة فشل الاحتلال فى كسرها .

أثناء انتظار شاعرنا فى غرفة الجندى الإسرائيلى للسيارة التى ستقله لمركز الحدود لاستكمال إجراءات دخوله ، تمثل له فى تلك اللحظة جدته و والده و أخوه منيف و الروائى الكبير غسان كنفانى ورسام الكاريكاتير الكبير ناجى العلى وغيرهم من أحبائه و أصدقائه الذين سبقونا إلى العالم الآخر و بسؤاله عن السبب وراء تمثلهم فى تلك اللحظة أجاب:

هذه لحظة عسيرة جداً و مركبة جداً .. ها أنا يتاح لى العودة إلى الوطن بعد غربة ثلاثين عاماً، الذين ظهروا أمام عينى فى تلك الغرفة منذ بداية قطع الجسر إلى لحظة الوصول و طوال فترة إقامتى هناك ظهروا أمام عينى لأنهم لم يستطيعوا أن يحققوا ما كان لى حظ فى تحقيقه، فكأن فى المسألة لوماً للذات و استكثاراً أن يكون لى من الحظ ما لم يكن لهم , و بالتالى من مات منهم شهيداً فى طريقه إلى هذا الجسر.. ومن مات منهم صبراً و كمداً و حلماً لم يحققه.. كلهم قفزوا إلى الذاكرة كأنى أريد أن أصطحبهم معى إلى

الداخل , كأنى أريد أن أعلن عن عتبى على نفسى أننى أنفرد بما حلم به الجميع .

عاد الشاعر الفلسطينى الكبير مريد البرغوثى إلى موطنه فلسطين عام ١٩٩٦ بعد اتفاقية أوسلو.. و فى الطريق إلى رام الله و السيارة التى يستقلها تواصل طريقها نظر شاعرنا من نافذة السيارة على يمينه و على يسار السائق فأدهشه وجود العلم الإسرائيلى فى المناطق الفلسطينية فأدرك أنه يرى لأول مرة المستوطنات " إنها إسرائيل ذاتها . إنها إسرائيل الفكرة و الأيدولوجيا و الجغرافيا و الحيلة والذريعة . إنها المكان الذى لنا و قد جعلوه لهم . المستوطنات هى كتابهم . شكلهم الأول . هى الميعاد اليهودى على هذه الأرض . هى غيابنا . المستوطنات هى التيه الفلسطينى ذاته . إن مفاوضى أوسلو كانوا يجهلون المعنى الحقيقى لهذه المستوطنات و إلاَّ لما وقعوا الإتفاقية ! تنظر من نافذة السيارة يميناً فتفاجأ بأن الشارع النحيل المتآكل الذى يحملك ، يصبح أكثر اتساعاً و نعومة و أناقة . اسفلته يزداد بريقاً ، وسرعان ما ينفصل عن الطريق ، صاعداً إلى تلة فاخرة المبانى ، فتدرك انه يفضى إلى مستوطنة . تنظر إلى يسارك بعد قليل،

فترى مستوطنة ثانية و شارعاً أنيقاً عريضاً آخر يؤدى إليها
ز ثم ترى الثالثة و الرابعة و العاشرة و هكذا . الأعلام
الإسرائيلية ترتفع على مداخلها . و تلاحظ أن الكتابة على
إشارات المرور باللغة العبرية فقط . من أقام كل هذا الهول ؟
من بناه ؟ " (رأيت رام الله ص ٤٦) .

في الصباح الأول لشاعرنا مريد البرغوثى فى رام الله
رأى المستوطنات مجدداً من الشرفة "يالها من بداية
لاستئناف العلاقة بالوطن ! " ص ٥٣ و اتساءل هنا إذا ما
كانت هناك ملامح باقية من الوطن القديم الذى عاش به
بالرغم من وجود المستوطنات فعاجلنى قائلاً:

المؤسف أن كل الملامح القديمة بقيت .. لماذا ؟! لأن
المطلوب بالنسبة لنا ان نتقدم و المطلوب بالنسبة للمحتل أن
نبقى على حالنا , فالاحتلال منذ السيطرة على فلسطين فى
١٩٤٨ حرص على ابتلاعها , و منذ أن سيطر على نصفها
الثانى فى ١٩٦٧حرص على إبقائنا كما نحن دون تقدم
وبالتالى وجدت كما قلت فى الكتاب ان المستقبل يقع تحت
الشمس ككلب و أردت أن اضربه بعصا و أقول له اركض .
المستقبل يجب ألا يظل مكانه و إلا أصبح مستنقعاً من

الماضى .. كل التقدم الذى كان مطلوباً أن يحدث طوال ثلاثين سنة لم يحدث منه شىء , الاحتلال يريدنا ريفاً له , يريدنا ملحقاً و كياناً متخلفاً من جميع النواحى , فبعد ثلاثين سنة لم أجد مكتبة واحدة جديدة أضيفت فى البلاد , لم أجد داراً واحدة للسينما أضيفت , لم أجد مسرحاً , الاحتلال يعيق نمو الاراضى التى يحتلها .. يعيق نمو الشعب الذى ينزح تحت نير الاحتلال .. و كنت أتساءل خلال هذه الثلاثين سنة كم كان من الممكن لنا ان نتقدم ثقافياً و اقتصادياً ومعمارياً لو لم يكن هناك احتلال .. كان الوضع مذهلاً جداً .

يلاحظ القارىء لهذه السيرة أن الشاعر يأخذنا على مهل إلى الشوارع و البيوت .. صور مقربة يسجلها لنا عن الناس و حكاياتهم و طباعهم .. صور مقربة تجعلنا ندرك ان الحياة تستعصى أحياناً على التبسيط و هى العبارة التى يكررها دوماً فى كتابه هذا .. و فى الوقت ذاته تتوازى قصته الشخصية التى يستعيدها باستعادته للمكان أو التى يملى وجوده بالمكان ورودها إليه ..

سجل الشاعر الفلسطينى مريد البرغوثى فى كتابه رؤيته للكتابة العربية ، فهو يرى أن الفكاهة و السخرية عنصران

لابد منهما للكتابة العربية و الفلسطينية ، و بسؤاله عن السبب وراء ذلك أجاب :

ليس ضرورياً أن يكون الكاتب ثقيل الظل .. أى كتابة شرطها الأساسى عند القارىء و شرطها الاول أن تكون ممتعة .. نحن لا نكمل كتابا لا يمتعنا.. مآسى شكسبير ممتعة فى قراءتها .. و المآسى الإغريقية ممتعة فى قراءتها .. و بالتالى ما لا يمتعنا ليس فناً.. الفن مسألة ليست مرتبطة أبداً بالنكد و بثقل الظل .. الكاتب إذا لم يكن عنده لمحية وسرعة بديهة و قوة ملاحظة لكى يلتقط الفكاهة فى هذه الدنيا و هى مليئة بالفكاهات .. الجنازة فيها فكاهات .. هناك فكاهات فى العزاء .. و الناس قد تضحك فى مواقف نظن أن من المفروض فيها البكاء .. أنا أستكثر أن يكون أدبنا فقط مرتبطاً بالنكد و الآلام و الأوجاع .. و بالتالى يجد القارىء فى هذا الكتاب فقرات ساخرة جداً سواء فى الحديث العائلى او فى القرية أو فى المضافة و هى مثل دوار العمدة فى مصر و هى المكان الذى يسهر فيه وجهاء القرية و يقضون أمسياتهم مع القهوة العربية أو الشاى .. ويتبادلون القفشات و النكات والأملوحات و الحكايات .. فهذا سُجل كله لأنه جزء

من الحياة . . لا أحد يعيش الأربع والعشرين ساعة فى اليوم بشكل واحد .. لا السجين و لا المعتقل و لا المحب و لا العاشق و لا الإنسان فى شهر العسل ,و لا المسافر و لا المقيم يقضى الأربع و العشرين ساعة فى تشابه .. بالتالى تتقلب اللحظات بين الجد و المزاح و الألم و الرضا و السخط و التصبر و عدم الاحتمال و القوة و الضعف .. الكاتب عليه أن يلتقط بدقة وبأمانة أن الناس تعيش هذه اللحظات .. وقد يكون جزء كبير جداً وراء مشروع هذا الكتاب هو تقديم صورة الفلسطينى العادى .. نحن كما أكرر دائماً كفلسطينيين يصوروننا كحالة إكلينيكية .. إما ضحايا او مجرمين .. إما فى يدنا سكين أو فى ظهرنا سكين .. إما نقتل أو نقتل هذه صورة كاذبة. . فى أوج المقاومة فى أوج الاحتلال .. فى أوج المقاومة فى أوج اجتياح بيروت.. فى أوج الحياة داخل أى سجن أو معتقل إسرائيلى هناك دائماً آليات لإبقاء الحياة حية و لإبقاء الجسد يقظاً .. و لإبقاء العقل فى حالة صحو .. و هذا يؤدى بالإنسان إلى إنه يقبل ما تمليه الحياة من أمور تناقض حالة الشخص .. يكون فى السجن و تجده سعيداً و يضحك أكثر من أى شخص آخر .. لخمس دقائق .. ثم يعذب و يضرب

ويقاوم تحت التحقيق و يتصرف ببطولة و يضمد جراحه ويستمر فى تحمل العذاب .. ولكن ربما من ملحوظة عابرة من زميل له فى الزنزانة تجده يقهقه مرة أخرى .. و بالتالى الكتابةالأمينة تقتضى أن نلتقط أن الحياة ليست ببساطة ما يحاول كتاب الخطابة و المباشرة أن يصوروه لنا ,, الانسان الفلسطينى .. الرجل و المرأة .. الشيخ و الطفل .. كل الشعب الفلسطينى ليس حالة إكلينيكية .. نحن نظهر فى التليفزيونات عندما تكون هناك مجزرة .. عندما يكون هناك موت و دم مسفوك .. لكن الفلسطينى الذى يذهب فى دروب الحياة عاشقاً .. كاتباً .. أكاديمياً .. رساماً .. زوجاً ..صديقاً أو جاراً .. الفلسيطنى الذى يذهب فى دروب الحياة العادية الطبيعية يصدق حيناً .. يكذب قليلاً .. هذا فلسطينى غائب . و أنا أرفض هذه الصورة لأنها تنزع الإنسانية عن الشعب الفلسطينى .

يعيش الشاعر فى الوقت , فعلاقته بالمكان هى فى حقيقتها علاقة بالزمن و عن ذلك حدثنى قائلاً :

كل مكان أقمت فيه اضطررت لمغادرته .. و شعراً قلت ذات مرة

كلما ركزت خيمة يومنا التالى

تطيح بها الرياح و يقلع الوتد

فأصبحت أخشى التآلف مع الأمكنة , لأنى أدرك من البداية أنه سيأتى يوم و يقال لى غادر المكان , لقد أقمت فى ثلاثين بيتاً أو اكثر .. و حياة من الإقامة بهذه الطريقة تعطب العلاقة بالمكان ,و فى مشوار هذا العمر كان التشبث بأى مكان هو التشبث بالخسارة و بالفقد المسبق .. فأن تقيم فى شقة بالإيجار أو فى شقة مفروشة أو فى فندق أو فى بلد تتغير قوانينه يرضى عن إقامتك سنة و يغضب منك سنة أخرى .. تسجن فى هذا البلد و ترحل من ذلك البلد، فالقلب يتعود أن يقسو على نفسه حتى لا يحب ما سيترك .. ما سيفقد .. فأصبحت فعلاً أعيش فى لحظات الحياة التى مرت بى أختزنها.. أفكر فيها .. أتزود بها .. أتقوى بها .. أشتاق لها و من هنا عبارة الإقامة فى الوقت و هو عنوان واحد من فصول الكتاب , لأن المقتلع من أرضه و من وطنه يذهب إلى الشتات و إلى المنافى .. هذه المنافى مليئة بالتقلبات كالحياة نفسها .. و مليئة بالمفاجآت .. فقد سجنت و رحلت و طردت وانتقلت من بلد إلى آخر إما لأسباب تتعلق بالعمل أو تتعلق

بالأمور السياسية أو بإضطرارات عائلية . . كنت دائماً أغادر .. أترك ما بنيته بيدى و أغادر .. أترك نباتاتى .. أترك مكتبتى .. و أترك أثاث البيت .. أتركه و أغادر.. ببساطة أغادر .. فروضت نفسى على عدم التعلق بما لدى .. و بالتالى لا أثمن أيه ممتلكات و استغرب أن يسعى الناس كثيراً لاقتناء هذه القطعة من الأثاث أو تلك .. يعنى أن الناس تحب تشترى و يباركوا لبعض مبروك اشتريتم تليفزيون مبروك اشتريتم دولاب جديد .. هذه أمور تعلمت أنها عابرة جداً و الغالى منها رخيص حقاً .. و أن الأثمن هو اللحظات التى تظل فى الوجدان و فى الذاكرة .. و هذه هى لحظاتى الثمينة و ليست ممتلكاتى الثمينة.. ممتلكاتى الثمينة هى لحظات و مشاهد ووجوه و علاقات إنسانية هى التى أعيش فيها .. و هذه لا تخذلنى، أبداً ستبقى معى حتى الموت .. أما الأماكن فهى مهددة دائماً وأنا فيها مهدد .

كتب الشاعر أن التليفون أصبح وسيلة إرهاب للفلسطينى المبعد عن أرضه و بسؤاله عن السبب وراء ذلك أجاب :

يرن التليفون فلا يعرف أحد الخبر القادم عبر الأسلاك .. و عندما يغيب المرء عن وطنه ثلاثين عاماً فسيأتى عبر هذه

الأسلاك أخبار مفرحة و سيأتى عبر هذه الأسلاك أخبار غير مفرحة.. سيأتى عبرها نعى أحباء يموتون .. و أخبار عن هذا الذى استشهد و هذا الذى جرح و هذا الذى أسر و هذا الذى مرض .. و التليفون يحمل نقائض من الاخبار فمع كل رنة يتوجز الغريب أو المشرد أو المسافر أو البعيد .. يتوجس .. من الخبر .. يعنى كأنه رايح للتليفون و هو يقول خير إن شاء الله خير .. الله يستر .. و خصوصا المكالمات المتأخرة ليلاً أو المبكرة صباحاً أو غير المتوقعة.. و هذا ما حدث لى و ما يحدث لسواى طوال هذه السنوات الطويلة من العمر خارج البلاد .. أن المرء يعيش فى مكان ثم كل من يحبهم من الأسرة و الجيران و الأصدقاء يعيشون فى تناثر من البلدان الأخرى .. و أن مصائر كل هؤلاء يتم تناقلها عبر الرسائل أو التليفون .. فقبل فتح الرسالة أو الرد على التليفون يتوجس المرء عن ما الذى ينتظره من هذه الأخبار .. و أصبحت فعلاً رنة التليفون رسالة فزع .. و بالنسبة لى أنا لست أسرع شخص فى البيت للرد على التليفون .. و أحيانا ألام على ذلك .. فأنا لا أفضل التعامل مع التليفون فقد تلقيت عبره أخبارا مؤلمة كثيرة ..

فى آخر ليلة من زيارة شاعرنا الكبير مريد البرغوثى لموطنه فلسطين بعد ثلاثين عاماً من الغربة لملم " النهارات والليالى ذات الضحك , ذات الدموع ، ذات الغضب ، ذات العبث , و ذات الشواهد الرخامية التى لا يكفى عمر واحد لزياراتها جميعا ، من أجل تقديم الصمت و الاحترام" (رأيت رام الله ص ٢٨٢) و اختتم رحلته بسؤال لم تجد الأيام له جواباً عليه.. سؤال أردده معه..

"ما الذى يَسلبُ الروحَ ألوانَها ؟

ما الذى غيرَ قصفِ الغزاةِ أصاب الجسد ؟ "

فهـــرس

رقم الإيداع:
٢٠٠٦/٤٥٧١
I. S. B. N.
977 - 07 - 1197 - 7

هذا الكتاب

قراءة عميقة فى السيرة الذاتية لعدد من أبرز أدبائنا ومفكرينا، مستعينا بحوار شامل معهم، سجلته الإعلامية المتميزة لبنى عبدالمجيد شكرى فى برنامجها الإذاعى المعروف «اعترافات أدبية» فى إذاعة صوت العرب.

هذه القراءة تحاول أن ترسم بورتريهاً لحياة وأفكار ومواقف أربعة عشر شخصية ، (مصريين وعرب) ، من الذين أثروا الثقافة والفن والأدب.. مفكرين ورسامين وشعراء وأدباء ، بعضهم رحل عن عالمنا، والآخرين مازالوا يواصلون العطاء.

لبنى عبدالمجيد شكرى



* مقدمة برامج - إذاعة صوت العرب.

* حاصلة على منحة مؤسسة فورد للحصول على درجة الماجستير فى الإعلام.

* نالت شهادة تقدير من لجنة تحكيم مهرجان القاهرة الثامن للإذاعة والتليفزيون عام ٢٠٠٢ عن برنامجها «اعترافات أدبية» .

* حصلت على شهادة تقدير من هيئة الإيديست وشهادة من معهد الإذاعة والتليفزيون.